



د. عبداللہ شحاتہ

# تفسیر القرآن المجرب

Andy

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

دار خیریت  
مکتبہ اسلامیہ



## الاستسقاء

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

المفردات:

استسقى

: طلب السقيا عند عدم الماء أو قلته، قال أبو طالب يمدح النبي صلى الله عليه وسلم.

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثمالة اليتامى عصمة للأرامل

والانفجار، والانجاس. والمكب بمعنى.

والمشرب

: مكان الشرب.

ولا تعتوا في الأرض : لا تمتدوا حال كونكم مفسدين.

تمهيد:

ذكر سبحانه في هذه الآية نعمة أخرى آتاهها بنى إسرائيل فكفروا بها ، ذلك أنهم حين خرجوا من مصر إلى التيه أصابهم ظمأ من لفع الشمس فاستغاثوا بموسى فدعا ربه أن يسقيهم فأجاب دعوته. وقد كان من دأب بنى إسرائيل أن يعودوا بالوهم على موسى إذا أصابهم الضيق ويمنون عليه بالخروج معه من مصر، ويصارحونه بالندم على ما فعلوا، فقد روى أنهم قالوا: من لنا بحر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام. وقالوا: من لنا بالطعام؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى. وقالوا: من لنا بالماء؟ فأمر موسى بضرب الحجر.

التفسير:

٦٠ - وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش وهم في صحراء مجدبة فطلب موسى لهم السقيا من الله تعالى فأجابهم الله إلى ما طلب وأوحينا إليه أن اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بمقدار عدد الأسباط. وصار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره. وقلنا لهم: تمتعوا بما من الله به عليكم من المن والسلوى، واشربوا بما هجرنا لكم من الحجر الصلب من غير تعب منكم ولا مشقة.

ولا تتشروا فسادكم في الأرض فتتحول النعم التي بين أيديكم إلى نقم وتصبحوا على ما فعلتم نادمين.

وقد جاء هذا النهى عقب الإتمام عليهم بطيب المأكول والمشرب خيفة أن يتشأ الفساد فيهم بزيادة النعم عليهم، وثلاثا يقابلوا النعم بالكفران.

قال تعالى: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفٍ ﴿٦٠﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَى. (الملق ٦، ٧)

والحجر الذى ضربه موسى لم يكن حجراً معيناً بل أى حجر من أحجار الصحراء. وآل في الحجر

لتعريف الجنس أى اضرب أى حجر شئت بدون تعيين، وقيل للمهد، ويكون المراد حجراً معيناً معروفاً لموسى عليه السلام بوحى من الله تعالى.

وقد أورد المفسرون في وصف هذا الحجر آثاراً حكم المحققون بضعفها.

(قال الحسن: لم يكن حجراً معيماً بل أي حجر ضربه انفجر منه الماء، وهذا أظهر في حجة موسى عليه السلام وأدلى على قدرة الله، وقد سماء في سفر الخروج الصخرة) (١٥٨).

والفاء في قوله تعالى: **فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا**، للعطف على محذوف تقديره: ضرب فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وقد حذفت هذه الجملة المقدرة لوضوح المعنى.

وكانت العميون اثنتي عشرة عينا، لأن بني إسرائيل كانوا اثني عشر سبطا، والأسباط هي بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وهم ذرية أبناء يعقوب عليه السلام الاثني عشر، ففي انفجار الماء من اثنتي عشرة عينا إكمال للنعمة عليهم حتى لا يقع بينهم تنازع وتشاجر.

وقوله تعالى: **كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ** . مقول لقول محذوف تقديره **وقلنا لهم: كلوا واشربوا من رزق**

وبذلك تكون الآية الكريمة، قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة جليلة ونصحتهم بأن يشكروا الله وحذرهم من الفساد والجهود.



غضب الله عليهم

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُؤْمِنُونَ لَنْ نَقْصِرَ عَنْ طَعَامٍ وَاحِدٍ قَادَعٌ لَّنَا رَيْبُكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُثَبِّتُ  
الْأَرْضُ مِنْ بَقِيلِهَا وَقِثَّاءِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي  
هُوَ أَذْيَبٌ بِالَّذِي هُوَ حَيْرٌ أَهَيُّوا مِضْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَآسًا ۖ لَّتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ  
الْأَلْزَلَةُ ۖ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ ۖ وَيَعْصَبُ مِنْ ۚ اللَّهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ  
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١﴾

### المفردات:

**العصير :** حبس النفس وكفها عن الشر.

**الطعام** : ما رزقوه في القبر من المن والسلوى.

**البقل** : ما تثبتت الأرض من الخضر مما يأكله الناس والأنعام من نحو النعناع والكراث وغيرهما.

القوم : الحنطة وقال جماعة منهم الكسائي إنه الثوم.

- القضاء** : نوع من المأكولات أكبر حجماً من الخيار، وتسميه العامة القطة.
- والاستبدال** : طلب شيء بدلاً من آخر، وأصل الأدنى الأقرب ثم استعمل للأخس الدون.
- والهبوط** : الاتعداد والنزول.
- المصر** : البلد العظيم.
- ضربت عليهم** : أى أحاطت بهم كما تحيط القبة بمن ضربت عليه أو الصقت به.
- الذلة** : الذل والهوان.
- المسكنة** : الفقر، وسمى الفقير مسكيناً لأن الفقر أسكنه وأقمده عن الحركة.
- تمهيد:**

ذكر في هذه الآية جرماً آخر من جرائم أسلافهم التي تدل على كفرانهم بأنعم الله وترشد إلى أنهم دأبوا على إغاثات موسى، وأنهم أكثروا من الطلب فيما يستطيع وما لا يستطيع حتى يئأس منهم ويرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا الذلة.

وقد بلغ من إغاثتهم لموسى أن قالوا: **لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**. (البقرة: ٥٥) وإن قالوا: **لَنْ نُصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ**. وهم يريدون بذلك أنه لا أمل لك من بقائنا معك على هذه الحال من التزام طعام واحد، وربما لم يكن صدر منهم هذا القول عن سام وكراهية لوحدة الطعام، بل صدر عن بطر وطلب للخلاص مما يخشون.

#### التفسير:

واذكروا يا بنى إسرائيل بعد أن أسبقنا عليكم نعمنا ما كان من سوء اختيار أسلافكم وقساد أدواقهم، وإغاثاتهم لنبيهم موسى - عليه السلام - حيث قالوا له بيطر وسوء أدب: **لَنْ نُصْبِرَ عَلَى طَعَامِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى فِي كُلِّ وَقْتٍ، فَسَلْ رَيْكَ أَنْ يُخْرِجَ لَنَا مِمَّا تَتَبَتِ الْأَرْضُ مِنْ خَضْرَاهَا وَفَاكِهَتِهَا وَحَمَلَتِهَا وَعَدَسُهَا وَبِصْلَهَا، لَأَنْ نَقُوسِنَا قَدْ عَافَتِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، فَيُؤْبِخُهُمْ نَبِيُّهُمْ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَالَ: اتَّخَذْتَارُونَ الَّذِي هُوَ أَقَلُّ فَائِدَةً وَأَدْنَى لَذَّةً وَتَتَرَكُونَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُبُونَ.**

انزلوا إلى أى مصر من الأمصار فإنكم تجدون فيه ما طلبتموه من البقول وأشباهاها. وأحاطت بنى إسرائيل المهانة والاستكانة كما تحيط القبة بمن ضربت عليه، وحق عليهم غضب الله، بسبب كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وتكرار العصيان والعُدوان منهم.

#### ملحقات التفسير:

١ - فى الآية ما يشعر بسوء أدبهم فى مخاطبتهم لنبيهم موسى عليه السلام، إذ عبروا عن عدم رغبتهم فى تناول المن والسلوى بعرف، **لَنْ** - المفيد لتأكيد النفي فقالوا لن نصبر.

**قال الحسن البصري**، (يطروا طعم المن والسلوى فلم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس ويصل ويقل وثوم) (١٥٩).

٢ - وصفوا الطعام بالوحدة مع أن المن والسلوى نوعان، لأنهم أرادوا من الوحدة أنه طعام متكرر فى كل يوم لا يختلف بحسب الأوقات، والمرب تقول لمن يجعل على مائدته فى كل يوم أنواعاً من الطعام لا تتغير إنه يأكل من طعام واحد أو شرب واحد لأنهما طعام أهل التلذذ، وهم كانوا أهل فلاحه فتزعموا إلى عاداتهم واشتهوا ما اقنوه (١٦٠).

٣ - جملة: **اَسْتَبْدَلُوْنَ الَّذِي هُوَ اَدْنٰى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ** . من مقول موسى عليه السلام لهم، وفيها توبيخ شديد لهم على سوء اختيارهم وضعف عقولهم لإيتائهم الأدنى وهو البقل وما عطف عليه خير منه وهو المن والسلوى. قال الطبري: (أى قال لهم موسى: اتأخذون الذى هو أخص خطراً وقيمة وقدرا من العيش، بدلا بالذى هو خير منه خطراً وقيمة وقدراً، وذلك كان استبدالهم)<sup>(١٦١)</sup>.

٤ - قوله تعالى: **اهْبِطُوا مِصْرًا**.

قال البيضاوى: أى انحدروا إليه من التيه. يقال هبط الوادى إذا نزل به وهبط منه إذا خرج منه.

وقال ابن كثير: **مِصْرًا** . هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف<sup>(١٦٢)</sup>.

وقال الطبري: (فأما القراءة بالألف والتنون «اهبطوا مصرًا» وهى القراءة التى لا يجوز عندي غيرها، لاجتماع مصاحف المسلمين واتفاق قراءة القراء على ذلك)<sup>(١٦٣)</sup>.

وقال أبو حيان فى البحر المحيط: (قرأ الحسن وطلحة والأعمش وأبان بن تغلب (مصر) بغير تنوين، وقد وردت كذلك فى مصحف أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وبعض مصاحف عثمان رضى الله عنه)<sup>(١٦٤)</sup>.

والمعنى على القراءة الأولى: اهبطوا مصرًا من الأمصار لأنكم فى البدو، والذى طلبتم لا يكون فى البوادي والفيافي، وإنما يكون فى القرى والأمصار، فإن لكم إذا هبطتموها ما سألتهم من العيش.

والمعنى على القراءة الثانية: اتركوا المكان الذى أنتم فيه واهبطوا مصر التى كنتم تسامون فيها سوء العذاب فإنكم تجدون فيها ما تبغونه، لأنكم قوم لا تقدرون نعمة الحرية ولا ترتاحون للفضائل النفسية، بل شأكم - دائماً - أن تستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير.

٥ - قوله تعالى: **وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ** . الفرق بين الذلة والمسكنة: أن الذلة هوان تجئ أسبابه من الخارج كأن يُغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو، أما المسكنة فهى هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق واستيلاء الطامع والشهوات عليها، وتوارث الذلة قرونًا طويلة يورث هذه المسكنة، ويجعلها كالطبيعة الثابتة فى الشخص المستدل.

٦ - قوله تعالى: **وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ** . أى رجعوا منصرفين متحملين غضب الله، وقد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم منه سخط<sup>(١٦٥)</sup>.

**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**.

ذلك . إشارة إلى ما سبق من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب.

والجملة الكريمة استئناف يبين جواب عن سؤال تقديره: لم فعل بهم كل ذلك؟ فكان الجواب فعلنا بهم ذلك بسبب كفرهم بآيات الله وبالمعجزات التى من جعلتها ما عد عليهم من خلق البحر وإظلال الغمام وإنزال المن والسلوى وانفجار العيون من الحجر . أو بالكتب المنزلة كالإنجيل والفرقان<sup>(١٦٦)</sup>.

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ . فَإِنَّهُمْ قَتَلُوا أَشْعِيَاءَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَغَيْرَهُمْ . بِغَيْرِ الْحَقِّ . إِذْ لَمْ يَرَوْا مِنْهُمْ مَا يَمْتَقِنُونَ بِهِ جَوَازَ قَتْلِهِمْ وَإِنَّمَا حَمَلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَحُبُّ الدُّنْيَا .

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ . أَيْ جَرَّهُمُ الْمَصِيانَ وَالْإِعْتِدَاءَ وَالتَّمَادِي فِيهِ إِلَى الْكُفْرِ بِالْآيَاتِ وَقَتْلِ النَّبِيِّينَ ، فَإِنَّ صِفَارَ الذُّنُوبِ سَبَبٌ يُوْدِي إِلَى ارْتِكَابِ كِبَارِهَا ؛ كَمَا أَنَّ صِفَارَ الطَّاعَاتِ أَسْبَابٌ مُؤَدِيَةٌ إِلَى تَحْرِى كِبَارِهَا .

وقيل: كَرَّرَ الْإِشَارَةَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَا لَحَقَهُمْ كَمَا هُوَ بِسَبَبِ الْكُفْرِ وَالْقَتْلِ فَهُوَ بِسَبَبِ ارْتِكَابِهِمُ الْمَعَاصِيَ وَاعْتَدَائِهِمْ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى . وَقِيلَ : الْإِشَارَةُ إِلَى الْكُفْرِ وَالْقَتْلِ وَالْبَاءُ بِمَعْنَى مَعَ (١٦٧) .

★ ★ ★

## الإيمان

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّاتِ مِنْ أَمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٦٦)

المفردات:

آمَنُوا : صدَّقُوا بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

هادوا : صاروا يهودًا ؛ يُقَالُ هَادَ يَهُودٌ إِذَا دَخَلَ فِي الْيَهُودِيَّةِ ، وَيَهُودٌ إِذَا عَرَبِيٌّ مِنْ هَادٍ إِذَا تَابَ ، سَمَوْا بِذَلِكَ لَمَّا تَابُوا مِنْ عِبَادَةِ الْعَجَلِ ، وَإِنَّمَا مَعْرَبٌ يَهُودًا وَكَانَهُمْ سَمَوْا بِاسْمِ أَكْبَرِ أَوْلَادِ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١٦٨) .

النصارى : جَمَعَ نَصْرَانٍ بِمَعْنَى نَصْرَانِيٍّ كَتَدَامَى وَنِصْمَانٍ وَالْيَاءُ فِي نَصْرَانِيٍّ لِلْمِثَالَةِ ، وَهُمْ قَوْمٌ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، سَمَوْا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ نَصَرُوا الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَوْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا مَعَهُ فِي قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا نَصْرَانٍ أَوْ نَاصِرَةٌ فَسَمَوْا بِاسْمِهَا أَوْ مِنْ أَسْمِهَا (١٦٩) .

الصَّابِغِينَ : قَوْمٌ بَيْنَ النَّصَارَى وَالْمَجُوسِ ، وَقِيلَ : أَصْلُ دِينِهِمْ دِينُ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقِيلَ : هُمْ عِبْدَةُ الْمَلَائِكَةِ ، وَقِيلَ : عِبْدَةُ الْكَوَاكِبِ .

وقد شاهدت هذه الطائفة حين كنت في العراق ويسمون الصبغة، ولهم طقوس خاصة بهم في الزواج والموت وغير ذلك. وهم قوم موحدون يعتقدون تأثير النجوم ويقرون ببعض الأنبياء. ويشتهرون في بغداد بسوق صعبة تسمى سوق الصابغة حيث يشتغلون بضرب الفضة وتزيينها ونقشها، وبيع قطع الفضة والنيكل بمد زخرفتها .

والإيمان المشار إليه في قوله تعالى:

مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . أَيْ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ فِي دِينِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْسَخَ مَصْدَقًا بِقَلْبِهِ بِالْمُبْدَأِ وَالْمَعَادِ عَامِلًا

بِمَتَقَضَى شَرْعِهِ .

وقيل : من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ودخل في الإسلام دخولا صادقا (١٧٠) فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . إن هؤلاء الذين آمنوا عن تصديق وإذعان، وقدموا العمل الصالح لهم أجرهم العظيم عند ربهم ولا يفزعون من هول يوم القيامة كما يفزع الكافرون، ولا يفوتهم نعمهم فيحزنون عليه كما يحزن المقصرون .

قال الإمام الغزالي:

إن الناس في شأن بعثته صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة:

- ١ - من لم يعلم بها بالمرّة وهذا ناج حتما .
- ٢ - من بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر في أدلتها إهمالا أو عنادا واستكبارا وهذا مؤاخذ حتما .
- ٣ - صنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد صلى الله عليه وسلم ولم يبلغهم نعمته ووصفه، بل سمعوا منذ الصبا أن كذابا مدلسا اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذابا يقال له المقنع تحدى بالنبوة كاذبا، فهؤلاء عندي في معنى الصنف الأول، فإن أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه لم يسمعوا ضد أوصافه، وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يعرك داعية النظر في الطلب . ١ - هـ .

★ ★ ★

### نقص العهد

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

المفردات:

الطور : هو الجبل المعروف الذي نجاى عليه موسى ربه - تعالى - ورفع الجبل فوق رؤوسهم كان لإرهابهم بمظنة القدرة من دون أن يكون لإجبارهم وإكراههم على العمل بما أوتوه، قال تعالى في سورة الأعراف . وَإِذْ تَنْقَا الْجَبَلَ فَرَقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ . (الأعراف : ١٧١) والتلق هو الهز والزعجة والجنب والافتلاع .  
والخسران : ذهاب رأس المال أو نقصه .

التفسير:

٦٣ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ... هذا بيان لتعنة أخرى أنعمها الله على اليهود مع بيان

حالمهم فيما عرض عليهم من التكليف. أى واذكروا وقت أن أخذنا عليكم العهد بأن تتبعموا موسى وتعملوا بالتوراة التى يجهتكم بها من عند الله . وَرَفَعْنَا فَرْقَكُمْ الطُّورَ . تخويفاً لكم.

فمن ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن موسى - عليه السلام - لما جاءهم بالتوراة وما فيها من التكليف الشاقة كبرت عليهم وأبوا قبولها، فأمر الله جبريل بقلع الطور فظله فوقهم حتى أقبلوا، لأنهم ظنوا أنه بهم<sup>(١٧١)</sup>.

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ . المراد من القوة: الجد والاجتهاد كما قال ابن عباس: أى قلنا لهم، خذوا ما آتيناكم بجد واجتهاد مع حسن النية والإخلاص، فإن ذلك يدفعهم إلى النظر فى الآيات حتى يقتنعوا ويحسنوا العمل.

وهنا سؤال وهو أنه يؤخذ من الآية أن إيمانهم كان بالإلجاء والإكراه، وهذا يناهى التكليف الذى يقوم على الاختيار، فهو الذى يَكُونُ العقيدة الصحيحة المبنية على الإقناع ؛ ولهذا قال تعالى : لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (البقرة: ٢٥٦) وقال لنبيه وكان حريصاً على إيمان الناس: .. أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (يونس: ٩٩)

والجواب أن الاختيار كان موكولاً إليهم فى كل عروض الإيمان عليهم، ولما لم يمتثلوا، كانت آيات التخويف لهم بمنزلة مشروعية القتال للكفار، لإصلاح حالهم مع الله تعالى، فإن الحكمة تدعو إلى الأخذ بالقوة إذا فشل النصح والإرشاد، ولهذا ينبغى أن يؤدب الوالد بالقوة ابنه المعوج السلوك إذا لم ينفع معه تكرار النصح حتى لا يستمر فسادُه<sup>(١٧٢)</sup>.

وَإِذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ : أى بعد أخذ الكتاب بقوة ادرسوا ما فيه وداوموا على تذكره حتى يرسخ فى قلوبكم، فإذا فعلتم ذلك صفت قلوبكم وارتقت فى السلوك إلى ريكم، وبهذا تصوير نقية من أدراَن الرذائل، راضية مرضية عند ربها . والعاقبة للتقوى.

٦٤ - ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ . هذا بيان لنقضهم وإعراضهم عن العمل بالميثاق الذى أخذ عليهم، وببذوه خلف ظهورهم، والمعنى ثم أعرضتم من بعد أخذ الميثاق عليكم وقبولكم إياه وذلك نقض للعهد تستحقون من أجله العقاب ولكن حال دون حلوله بكم فضل الله عليكم وإمهاله إياكم وتوفيتكم للتوبة، ولولا ذلك لكنتم من الخاسرين فى دنياكم وآخرتكم بسبب ما اجترحتن من نقض ميثاقكم.

وبذلك تكون الآيات قد ذكرت بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بما كان من أسلافهم من جحود النعمة، ونقض للعهد، وهى هذا التذكير تحذير لهم من السير على طريقة أسلافهم ودعوة لهم إلى الدخول فى الإسلام واتباع محمد صلى الله عليه وسلم.



## عقوبة اليهود

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المفردات:

الاعتداء:

: تجاوز الحد في كل شيء.

السبت:

: هو اليوم المعروف في الأسبوع واعتادوهم فيه تجاوزهم في حكمه.

خاسئين:

: صاغرين مطرودين.

فجعلناها نكالا:

: النكال ما يفعل بشخص من إيذاء وإهانة ليعتبر به غيره. والمراد جعلنا عقوبتهم عبرة لغيرهم، تتكلمهم وتمنعهم عن مثل ما فعلوا.

لما بين يديها وما خلفها:

: للمعاصرين لها ولن بعدها من الأمم.

الموعظة:

: ما يبقى من الكلام لاستشعار الخوف من الله بذكر ثوابه وعقابه.

عدوان السبت:

ملخص قصة اعتداء بني إسرائيل في السبت: أن الله تعالى أخذ عليهم عهداً بأن يتقربوا لعبادته في ذلك اليوم. وحرم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام، وقد أراد سبحانه أن يختبر استعدادهم للوفاء بعهودهم فابتلاهم بتكاثر الحيتان في يوم السبت دون غيره، فكانت تتراءى لهم على الساحل في ذلك اليوم قربيبة المأخذ سهلة الاصطياد فقالوا: لو حفرنا إلى جانب ذلك البحر الذي يزخر بالأسماك يوم السبت حياضاً تساب إليها المياه في ذلك اليوم ثم نسمطها من تلك الحياض في يوم الأحد وما بعده، وبذلك نجتمع بين احترام ما عهد إلينا في يوم السبت، وبين ما تشتهي أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك، فنصحهم فريق منهم بأن عملهم هذا إنما هو امتثال ظاهري لأمر الله ولكنه في حقيقته خروج عن أمره من ترك الصيد في يوم السبت فلم يعا أكثرهم بذلك، بل نفذ تلك الحيلة، فغضب الله عليهم ومسحهم قردة وجعلهم عبرة لمن عاصروهم ولن أتى بعدهم. والحديث عن أصحاب السبت قد جاء ذكره مفصلاً في سورة الأعراف (١٧٣) كما جاءت الإشارة إليه في سورتي النحل والنساء.

التفسير:

٦٥ - وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ .. أي ولقد عرفتم نبا الذين تجاوزوا منكم الحد الذي

رسمه لهم الكتاب، وركبوا ما نهاهم عنه من ترك العمل الدنيوي، والتفرغ للعمل الأخرى يوم السبت.

﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ أي حولهم الله إلى قردة صاغرين مطرودين مبغضين عن الخير أذلاء.

والخسوة: الطرد والإبعاد يقال: خسأت الكلب خساً وخسوءاً من باب منع - طرده وزجرته، وذلك إذا

قلت له: أخساً.

وجمهور المفسرين على أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك بوقت قصير.

«وروي أن المسوخ لا ينسل ولا ياكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام»<sup>(١٧٤)</sup>.

ويرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم، أي أنهم مسخوا مسخاً نفسياً فصاروا كالتردة في شروها وإفسادها لما تصل إليها أيديها.

قال الأستاذ الإمام محمد عبده: والآية ليست نصاً في رأى الجمهور ولم يبق إلا النقل، ولو صح لما كان في الآية عبرة ولا موعظة للعصاة، لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسح كل عاصي فيخرجه من نوع الإنسان، إذ ليس من سننه في خلقه، وإنما العبرة الكبرى في العلم بأن من سخط الله في الذين خلوا من قبل أن من يفسق عن أمره ويتكبد المصراط الذي شرعه له ينزله عن مرتبة الإنسان ويلحقه بهجماءات الحيوان وسنة الله واحدة، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية أ هـ.

وفي هذا تأييد لرأى مجاهد، روى ابن جرير عن مجاهد أنه قال: «مأسخت صورهم، ولكن مسخت قلوبهم فلا تقبل وعظاً ولا تعى زجراً».

وذاك على حد تمثيلهم بالحمار في قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** . (الجمعة: ٥)

وقد نقل الحافظ ابن كثير آثاراً عن بعض الصحابة والتابعين، في مسخ هؤلاء المعتدين على صورة التردة، وفي تفصيل قصتهم ثم قال: (قلت): والفرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان (معنوياً) لا (صورياً) بل الصحيح أنه معنى صوري والله تعالى أعلم<sup>(١٧٥)</sup>.

٦٦ - **فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** . أي جعلنا هذه العقوبة عبرة ينكل من يعلم بها، أي يمتنع من الاعتداء على حدود الله سواء منهم من وقعت في زمانه أو من جاء بعدهم إلى يوم القيامة.

**وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ** . أي لهم، وهم من يقون أنفسهم من عقاب الله من كل أمة، أو من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، أو من بنى إسرائيل، خص المتقين لأنهم هم الذين ينتقمون بالمواعظ.

قال الحافظ ابن كثير: المراد بالموعظة هنا الزجر، أي جعلنا ما أحلنا بهؤلاء من البأس والتكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم، كما روى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » وهذا إسناد جيد<sup>(١٧٦)</sup>.

## البقرة

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَ خَدُّنَا هَذَا هُزُوا قَالَ أَتَعِدُّونَ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا أَذْعُ لَنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَذْعُ لَنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا لَوْ نُهِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَذْعُ لَنَارِكَ يَبْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنْ الْبَقَرُ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَذُلُ تُشِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةً لَا شِيبَةَ فِيهَا قَالُوا الْفَن جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

المفردات:

: اسم الأنثى - والثور اسم الذكر.

البقرة

: اتحللنا موضع استهزاء أى سخرية.

انتخذنا هزوا

: هنا فعل ما لا ينبغي أن يفعل. وقد يطلق على اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

الجهل

: العارض المسة التى انقطعت ولادتها . فمعنى لا فارض غير مسة

لا فارض

: البكر الصغيرة التى لم تحمل بعد.

ولا بكر

: نصف بين المسنة والفتية.

عوان بين ذلك

: الفاقع هو شديد الصفرة.

فاقع لونها

: لحمنها.

تسر الناظرين

: أى أن البقر الفاقع هو وسط بين الفارض والبكر.

إن البقر

لاشتراك كل بقرة مع مثيلتها فى الأوصاف المطلوبة. فلا نستطيع أن نفرق بين البقر فيها، حتى نحصل على البقرة المطلوبة.

تشابه علينا

: إلى عيها لنذبحها. يظهرون بقولهم هذا، أنهم يريدون معرفة ما وقعت مشيئة الله عليه من هذا النوع من البقر، بذكر وصف مميز للمطلوب.

وإن شاء الله لمهتدون

الدلول	: الرريض الذى رالت صمويته، يقال دابة ذلول بينة، (الدل) بالكسر، ورجل ذلول بين الذل (بالضم)، فمعنى لا ذلول أى ليست مدللة وميسرة.
تثثير الأرض	: أى تقلبها بالمحراث.
ولا تسقى الحرث	: أى ولا تروى الرزخ.
مسلمة	: سليمة من العيوب وآثار العمل.
لاشية فيها	: لا لون فيها يتألف معظم جلدها، من وشى الثوب يشبه إذا ريبه بخطوط محتملة الألوان.
جلت بالحق	: جنت بحقيقة وصف البقرة ولم يبق فيها إشكال.
وما كادوا يفعلون	: وما قربوا من أن يذبحوها لملاء لهما أو خوف القضيحة.

## قصة البقرة:

قال ابن كثير فى تفسيره (عن عبدة السلماني: قال كان رجل من بنى إسرائيل عقيماً لا يولد له، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه، فقتله ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلموا وركب بعضهم على بعض فقتل ذؤاب الرأى منهم والنهى: علام يقتل بعضهم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له، فقال: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً** قَالُوا أَتَجِدُا هَرُوءًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . قال: فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى اتهموا إلى البقرة اثنى أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فقال: والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً، فأخذوها بملء جلدها ذهباً فذبحوها فصريره ببعضها فقام، فقالوا: من قتلنا؟ فقال هذا - لابن أخيه - ثم مال ميتاً فلم يعط، من ماله شيئاً ولم يورث قاتل بعد) (١٧٧).

## التفسير:

٦٧ - وإذ قال موسى لقومه **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً** . أى واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبوا وتتعلوا وقت أن حدث فى أسلافكم قاتل ولم يعرف الجاني فطلب بعض أهله وغيرهم من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله تعالى ليكشف لهم القاتل الحقيقي فقال لهم **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً** .

ويجوز أن يكون المعنى، واذكر يا محمد الوقت الذى قال فيه موسى لقومه . . والأمر هنا لكل من يصلح للخطاب، ليعرف ما كان عليه بنو إسرائيل من اللعاجة والعناد والفرار من الرشد: **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً** . ليكون وسيلة إلى معرفة القاتل.

وتكثير لفظ (بقرة) يشير إلى أنهم لو ذبحوا أية بقرة بعد الأمر لكففتهم ولكنهم كعادتهم - شددوا بتكرار الأسئلة فشدد الله عليهم (١٧٨).

وقد أمرهم الله بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات، لأنها من جنس ما عبده وهو العجل، وفى أمرهم

بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذي عظموه وعبدوه وأحبوه، فكانه سبحانه يقول لهم إن هذا البقر الذي يصرب به المثل في البلادة، لا يصلح أن يكون معبوداً من دُون الله، وإنما يصلح للحِثِّ والسُّقْيِ والعمل والذَّبْحِ.

وهذا استئناف بياني، كأن سائلاً قال: ماذا قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن أمرهم بذبح البقرة، فكان الجواب: قالوا: أنتخذنا هَرُوراً، وهزوا أي سحرية وهو بتقدير مصاب أي: موضع هزو.

استبعدوا أن يكون ذبح البقرة له صلة بتبرئة المتهم بالقتل فظنوا لجهلهم أنه يسخر بهم، فسألوه مستكبرين.

أنتخذنا هَرُوراً، وكان حقهم أن يمتثلوا، ولا يقولوا ما قالوا، فقد عرفوا هي رسولهم الجد هي أمره كله، ولا سيما ما ينقله لهم عن الله تعالى.

قال: أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ أي أُنَجِّئُ إِلَى اللَّهِ وَأَبْرَأُ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ أَكُونَ مِنَ السَّفَهَاءِ الَّذِينَ يَرَوْنَ عَمَهُ الْكَذَبَ وَالْبَاطِلَ.

وفي هذا الجواب تبرؤ وتبره عن الهوى، وهو المراح الذي يخالطه احتقار واستحفاف بالمنازع معه، لأنه لا يليق بمقتله الناس فضلاً عن رسل الله عليهم السلام.

قال الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين عليه رحمة الله:

وقد بيّنت الآية الكريمة على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير، ومن الجهل ما يلقي صاحبه في أسوأ العواقب، ويقذف به في عذاب الحريق، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يصريهوها في مقام المرح والهزل<sup>(١٧٨)</sup>. وقالوا: إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى بتدبير وخضوع، وليعمل به بتقبل وخضوع. اهـ<sup>(١٨٠)</sup>.

٦٨ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا بَكَرٌ عَوَالٍ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا

تَأْمُرُونَ

أي قال بنو إسرائيل لموسى، بعد أن عرفوا من جوابه الجد، اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حالها ويصنعها<sup>(١٨١)</sup>.

فقال لهم موسى إنه تعالى يقول إن البقرة التي أمركم بذبحها لا مسنة ولا صغيرة، بل نصف بينهما، فتركوا الإلحاح في الأسئلة ومبارحوا إلى امتثال ما أمرتهم به.

٦٩ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ قَالَ

سَوْسَرَتِيلَ لِسَبِيحِهِمْ، مُشَدِّدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا صِفَةَ الْبَقَرَةِ مِنْ جِهَةِ سَهْنِهَا، سَلَّ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَهَا، نَكْنَى يَسْهَلُ عَلَيْهَا الْحَصُولُ عَلَيْهَا فَاجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ إِنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: إِنَّ الْبَقَرَةَ الَّتِي أَمَرْتُمْ بِذَبْحِهَا، صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا.

الصفوح أشد ما يكون من الصفرة وأبلهه. ولذا يكون وصف الصفرة للتأكيد كأمس الدابر، وكما يختص الأصفر بالمناقع يختص الأسود بالخالك، والأخضر بالناصر، والأحمر بالقاني، والأبيض بالناصع.

قال ابن جرير الطبري (والصفرة في الصفرة نظير النضوج في البياض وهو شدته وصعاقه) (١٨٢).  
تسر الطائرين . أي تعدهم وتشرح صدورهم. لشموهم باللذة القلبية لحسن منظرها، وجمهور المسيرين يقولون إن الصفرة من الألوان السارة (١٨٣).

٧٠ - قالوا ادع لنا ربك يبي لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . كرروا سؤالهم الأول لطلب الاستكشاف الرائد بعد أن عرفوا سن البقرة ولونها، فقالوا لموسى: سل من أجلنا ربك أن يزيد إيضاحاً لحال البقرة التي أمرنا بذبحها حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير، فاشتبه علينا أيها دبح، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان ملك لمهتدون إليها ومنفذون لما تكلفنا به.

وقولهم وإنا إن شاء الله لمهتدون : فيه تخفيف لصورة عبادهم وإتيانهم بالمشيئة لتحسين الظن بهم.

وفي الحديث، (لو لم يستثوا - أي يقولوا إن شاء الله - لما بيئت لهم صفتها إلى آخر الأب) (١٨٤).

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور (وإنما لم يعتدوا في المرتين الأوليين واعتدروا في الثالثة لأن الثلاثة هي التكرير وفقاً من التمس في التأكيد والسأمة وغير ذلك، ولذا كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة) (١٨٥).

وقولهم لمهتدون . أي إلى المطلوب دبحه منها أو إلى معرفة القاتل نسبها قال الطبري (وما قوله تعالى وإنا إن شاء الله لمهتدون . فإنهم عتوا وإنا إن شاء الله لمهتدون . أي أنها بقرة لم تدل أني أمرنا بذبحها. ومعنى اهتدائهم في هذا الموضع تبينهم أن ذلك الذي لزمهم دبحه مما سواه من أجناس البقر) (١٨٦).

٧١ - قال إنه يقول إنها بقرة لأدلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمةً لا شية فيها . أي أنها بقرة لم تدل بالعمل في الحرثة والسقي. فلم تلد لا ناهية بمعنى غير . ولا . هي قوله تعالى ولا تسقي الحرث مزيدة لتأكيد الأولى لأن المعنى (لأدلول تثير وتسقي) (١٨٧). وأعيد في قوله: ولا تسقي الحرث . مراعاة للاستعمال المصيح قال ابن كثير إنها ليست مذلة بالحرثة ولا معدة للسقي في الساقية بل هي مكربة حسنة صالحة لا عيب فيها . هـ. ومعنى مسلمةً . أي سلمها الله من العيوب، ومعنى . لا شية . لا لون عيبا يخالف حنوها الأصغر، والشية هي الأصل، مصدر وشاه يشيه وشيا وشية، إذا خلط لونه بلون آخر.

قالوا الآن جئت بالحق . أي جئت بحقيقة وصف البقرة. وما بقي إشكال في أمرها، ولا وجه لنا في طلب الإيضاح بعد ذلك فدبحوها . أي حصلوا البقرة الجامعة لهذه الأوصاف كلها فدبحوها .

وما كادوا يفعلون . معناه وما قاربوا أن يفعلوا الذبح. والمقصود منه المبالغة في تباطؤهم وتعمدتهم. إطالة الزمن بكثرة المراحعات في وصف البقرة. وحيلة . وما كادوا يفعلون . حالية. قال الزمخشري : وما كادوا يفعلون .



نفسه، والله عز وجل محرج لا مجالاً ما كتمتم من أمر القاتل فقد بين سبحانه الحق في ذلك فقال على لسان رسوله موسى عليه السلام.

اصبروا القتل بأي جزء من أجزاء البقرة، فضربتموه ببعضها فعادت إليه الحياة بإذن الله، وآخر من قاتله، ويمثل هذا الإحياء لذلك القتل بعد موته يحيي الله الموتى للحساب والجزاء يوم القيامة، ويبين لكم الدلائل الدالة على أنه قدير على كل شيء.

وجمهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها حصلت قبل الأمر بذبح البقرة، إلا أن القرآن الكريم أخبرنا في الذكر ليعمد على بني إسرائيل جناياتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من وراء الأمر بدبحها فتقبلها يشغف واهتمام.

وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم في قوله: **وَأَذِّنْهُمْ** . مع أن القاتل بمضهم، للإشعار بأن الأمة في مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد، ولأن المسؤولية في القتل مشتركة بين الجميع حتى يتعين القاتل قاتلاً من عداة.

وقوله تعالى: **وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُتُمُ تَكْتُمُونَ** مماء، والله تعالى مظهر ومعلن ما كتمت تسترونه من أمر القاتل الذي قتلتموه، ثم تنازعتم في شأن قاتله، وذلك ليتبين القاتل الحقيقي بدون أن يظلم غيره.

وهذه الجملة الكريمة: **وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُتُمُ تَكْتُمُونَ** معترضة بين قوله تعالى: **فَأَذِّنْهُمْ** . وبين قوله تعالى: **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا** . وهادئة إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوا ما أمروا بفعله، بأن القاتل الحقيقي سينكشف أمره لا محالة.

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: (وإنما تعلقت إرادة الله بكشف حال من قتل هذا القاتل - مع أنه ليس أول قاتل ظل دمه في الأمم - إكراماً لموسى عليه السلام - أن يصيح دم في قومه وهو بين أظهرهم وبمراى ومسمع منه، لاسيما وقد قصد القاتلون استغفاله وديروا المكيدة في إظهار المطالبة بدمه، ولو لم يظهر لله تعالى هذا الدم ويبين سافكه لصعق يقين القوم برسولهم موسى عليه السلام . ولكن ذلك مما يريد شكهم في صدقه فيقبلوا كاهدين، فكان إظهار القاتل الحقيقي إكراماً من الله تعالى لموسى ورحمة بالقوم لئلا يضلوا) (١١١)

٧٣ - وقوله تعالى: **فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا** ..

أي اصبروا القتل ببعض البقرة المذبوحة ولاقطع بتعين هذا البعض، وإن قيل، إنه اللسان أو الفخذ أو عصب الدنبد، فضربوه بعزه منها، فأحياء الله تعالى ونطق باسم القاتل ثم مات بعد أن أحبر به.

**قال الزمخشري:** (ماب قلت: هلا أحياء ابتداء، ولم شرط في إحيائه ذبح البقرة وصربه ببعضها؟ قلت: في الأسباب والشروط حكم وهوائد، وإنما شرط ذلك لما في دبح البقرة من التقرب وأداء التكليف، واكتساب الثواب، والإشعار بحسن تقديم القرية على الطلب، وما في التشديد عليهم لتشديدهم، من اللطف لهم وللآخرين في ترك التشديد والمساورة إلى امتثال أوامر الله تعالى. وارتسامها على العور من غير تميتش وتكثير سؤال، وبع البيت بالتحارة الرابضة، والدلالة على بركة البر بالوالدين، والشفقة على الأولاد، وتجهيل الهارئ بما لا يعم



كنهه، ولا يطلع على حقيقته، من كلام الحكماء، بيان أن من حق المتقرب إلى ربه أن يتأق في اختيار ما يتقرب به، وأن يختاره حتى الس غير قعم ولا صرع، حسن اللون بريئاً من العيوب، يوق من يطر إليه، وأن يعالئ بئمه، كما يروى من عمر - رضى الله عنه - أنه ضعى بنجيبة بثلاثمائة دينار<sup>(١٩٧)</sup>.

### رأى تفسير المنار:

ذهب صاحب المنار إلى أن المراد بالإحياء في قوله تعالى: كذلك يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى. حفظ الدماء واستبقاؤها وليس المراد به الإحياء الحقيقي بعد الموت وأن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القاتل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليصرف الجاني من غيره، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برئ من الدم، ومن لم يفعل ثبتت عليه الجنابة<sup>(١٩٨)</sup>.

ولذى نراه أن المراد بالإحياء في قوله تعالى: كذلك يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى. الإحياء الحقيقي للميت بعد موته وأن تفسيره بحفظ الدماء واستبقاؤها ضعيف لما يأتى:

١ - مخالفته لما ورد عن السلف في تفسير الآية<sup>(١٩٩)</sup>.

٢ - قال تعالى: كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

وهي قرينة على أن المراد بالإحياء رد أرواحهم بعد موتهم وليس هناك نص صحيح يعتمد عليه في محالمة هذا الظاهر، ولا توجد قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من الآية بأدى تأمل، وما دام الأمر كذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل عليه اللفظ دلالة واضحة<sup>(٢٠٠)</sup> ومن التعسف الظاهر أن يراد من الموتى الأحياء من الناس، وإحياء الموتى تشريع العقوبات صوتاً لدماء الأحياء منهم. والله تعالى حينما أراد أن يدل على هذا المعنى قال: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

هذه الآية الكريمة تدل على أن القصاص من الحنة يحفظ على الناس حياتهم بدون التواء أو تسمية

٢ - الإزاعة في الآية بصرية لا عقلية، وسباق الكلام يابى أن يصرف عن الظاهر وخاصة قوله تعالى:

فَلَمَّا أَضْرَبُوهُ بَعْضُهُمْ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى<sup>(٢٠١)</sup>.

## قِسْوَةُ الْقُلُوبِ

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءً يَمْسِكُ مِنَ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤)

المضردات:

القِسْوَةُ : اليبس والصلابة.

يتفجر : يتفتح ويتشقق بكثرة وسعة.

يهبط : يتردى وينزل.

الخشية : الخوف.

المناسبة:

وصف الله حال بنى إسرائيل بعد أن رأوا من آياته التي أناتها موسى عليه السلام ما رأوا، كأنفجار الماء، ورفق الجبل، ومسخهم قردة، وإحياء القتيل إلى نحو ذلك، وصفهم بقسوة القلوب وضعف الوازع الديني فيها، حتى أصبحت كالصم الصلاد بل أشد منها قسوة.

التفسير:

٧٤ - ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ..

ثم صلبت قلوبكم - يا بنى إسرائيل - وغلظت من بعد أن رأيتم ما رأيتم من معجزات، منها إحياء القتيل أمام أعينكم فهي كالحجارة هي صلابتها ويبوستها، بل هي أشد صلابة منها لأن من الحجارة ما فيه تقوي متعددة وحروق متسعة، فتدقق منه مياه الأنهار التي تمود بالناوع على المخلوقات، ولأن منها ما يتصدع تصدعا قليلا فيخرج منه ماء العيون والآبار ولأن منها ما يتردى من راس الجبل إلى الأرض من خوف الله وخشيته.

وقد شاهدوا كل ذلك حين ضرب موسى الحجر فتجرت منه اثنتا عشرة عينا وشاهدوا الجبل يدك دكا حين تجلى الله له.

ولكن قلوبهم كلت وعميت وأغلقت مفاتيحها فلا تتأثر بموعظة، ولا تتقاد للخير، ولا تقبل ما تؤمر به، مهما تماقت عليها النعم والتقم والآيات.

والله تعالى حافظ لأعمالهم، يحصيها عليهم ثم يجازيهم بها، فهو سبحانه يهمل ولا يهمل، وهو بكل شيء عليم.

واسم الإشارة . ذلك . مشار به إلى إحياء القتيل بعد ضربه بجزء من البقرة، أو إلى جميع النعم والمعجزات الواردة في الآيات السابقة.

وقوله تعالى: وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ حَشِيَّةِ اللَّهِ .

بيان لفضل الحجارة على قلوبهم القاسية، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة، لأن هذا الأمر لفرابته يحتاج إلى بيان سببه.

فكانه سبحانه يقول لهم: إن هذه الحجارة على صلابتها وبيوستها منها ما تحدث فيه المياه خروفاً واسعة تتدفق منها الأنهار الجارية النافمة، ومنها ما تحدث فيه المياه شقوقاً مختلفة تتجم عنها الميون النافمة والآبار الجوفية المفيدة، ومنها ما ينقاد لأوامر الله عن طواعيه وامتنال، أما قلوبكم أنتم فلا يصدر عنها نفع ولا تنائر بالمعطات والعبر، ولا تنقاد للحكم التي من شأنها هداية النفوس. وقوله تعالى: وما الله بغافل عما تعملون . تهديد لهم وتطويف حيث إنه سبحانه سبحانه سيحاسيهم على أعمالهم وسيدينهم ما يستحقون من عقاب جزاء جسدوهم لنعمة، وعصيانهم لأوامره.

★ ★ ★

### تحريفهم كلام الله

﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذْ أَلْقَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضْبُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سِمَاتٍ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ، عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾

المضردات:

افتنطعمون أن يؤمنوا لكم : الهمة لإنكار طمع المؤمنين في إيمان اليهود بعد ما علموا حالهم، أي امتكارة واستعصامهم منهم، وألفاء عطمت ما بعدها على مقدر، والتقدير: (اتحسبون قلوبهم صالحة للإيمان بعد ما علمتموه من حالهم، امتطعمون أن يؤمنوا لكم) والمراد نهيمهم عن الطمع بعد علمهم بحالهم.

فريق منهم : جماعة منهم.

كلام الله : المراد به التوراة.

فتح الله عليكم : بين لكم خاصة، أو حكم وقضى عليكم.

ليحاجوكم

: ليخاصموكم ويقيمون عليكم الحجة .

عند ربكم

: أى هي كتاب ربكم وشرعه كما تقول هو : عدد الله كذا ، أى كتابه وشرعه .

تمهيد :

انقضى المتطلع السابق من المسورة في تكدير بنى إسرائيل بأنعم الله عليهم وجعودهم لهذا الإنعام التواصل ، وباستعراض مشاهد الإنعام والجود ، بعضها باختصار وبعضها بتطويل ، وانتهى هذا الاستعراض بتقرير ما انتهت إليه قلوبهم في نهاية المطاف من قسوة وجفاف وجذب ، أشد من قسوة الحجارة وجفافها وجذبها ، (هالآن يأخذ السياق في الاتجاه بالخطاب إلى الجماعة المسلمة يهدئها عن بنى إسرائيل ، ويبصرها بالساليبهم ووسائلهم في الكيد والمنعة ، ويهدئها كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجيلتهم ، فلا تمردع بأقوالهم ودعائهم ووسائلهم الماكرة في الفتنة والتضليل ، ويدل طول هذا الحديث وتنوع أساليبه على ضخامة ما كانت تلقاه الجماعة المسلمة من الكيد المنسوب لها والمرصود لدينها من أولئك اليهود) (١٩٧).

لقد كان النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه شديدي الحرص على دخول اليهود في ساحة الدين الجديد ، طامعين في انصوائهم تحت لوائه : لأن دينهم أقرب الأديان إلى دينهم في تعاليمه ومبادئه وأغراضه هم يشتركون معهم في الاعتقاد بالتوحيد والتصديق والبعث والنشور ، وكتابهم مصدق لما معهم .

فقص الله في هذه الآيات على المؤمنين من أنبائهم ما أزال أطماعهم وأياسهم من إيمانهم .

التفسير :

٧٥ - افْتَظَمُوا أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرُفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

ما كان ينبغي لكم أيها المؤمنون أن تظلموا في أن يؤمن اليهود بدينكم وينقادوا لكم وقد اجتمعت في معتلبي فرقهم أشدات الرذائل التي تباعد بينهم وبين الإيمان بالحق ، فقد كان فريق منهم (وهم الأحزاب) يسمعون كلام الله في التوراة ويفهمونه حق الفهم ثم يتمردون تحريفه وهم يعلمون أنه الحق وأن كتب الله المنزل لا يجوز تغييرها (١٩٨) .

وجملة . وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ . حالية ، مشتملة على بيان أحد الأسباب الداعية إلى الضلوع من إيمانهم ، وبذلك يكون التقيد من إيمانهم قد علل بعلمين .

إحداهما : ما سبق هذه الآية من تصوير لأحوالهم السيئة .

ثانيتهما : ما تضمنته هذه الجملة الكريمة من تحريفهم لكلام الله عن علم وتمدد ، جملة . وَهُمْ يَعْلَمُونَ . حال مؤكد لاستهجان قبح ما اجترعوا عليه من التعريف .

والعنى : إن كمر هؤلاء وحرفوا قلمهم سابقة في ذلك (١٩٩) .

٧٦ - وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا حَلَا بِغُسُصِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِمَا نَحْنُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيَحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

وكان فريق من مناهضيههم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا كاذبوا فلهم آية الحق وأن محمدا هو النبي الذي جاء وصمه في التوراة.

وإذا خلا بعضهم إلى بعض عاتبهم الفريق الآخر على غفلتهم إذ تترلق السننهم في أثناء حداثهم للمؤمنين بصبرات تنفد خصومهم ولا يستدعيها الخداع. **أَتُحَدِّثُكُمْ بِمَا فَتحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ؟** . أتخبرون المؤمنين بما فتح الله عليكم من أبواب العلم التي كتمناها عنهم كالإشارة بالبيس وعلاماته، وأخذ الميثاق على أنبيائهم بالإيمان به، وتبليغ أممهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه إن أدركوه. **لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ**. أي ليقيموا عليكم به الحجة في كتاب ربكم وشرعه.

وقيل المراد بقوله : **عِنْدَ رَبِّكُمْ** . يوم القيامة، أي **لِيُحَاجُّوكُمْ** به يوم القيامة، توبيخاً لكم، وزيادة في فضيحتكم على رموس الأشهاد.

وهذا الرأي غير مقبول، فإنهم عالمون بأنهم معجوجون بما في كتابهم يوم القيامة، حدثوا به أو أخفوه، فلا وجه لتوبيخ إخوانهم على إظهاره للمؤمنين، إذا كان المراد بقوله : **عِنْدَ رَبِّكُمْ** . يوم القيامة.

روى عن ابن عباس أن ناسا منهم أسلموا ثم نافقوا، فكانوا يعدون المؤمنين بما عذب به آبائهم، فكانت لهم اليهود **أَتُحَدِّثُكُمْ بِمَا فَتحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ**، أي بما حكم به عليكم من العذاب، ليقولوا نحن أكرم على الله منكم؟.

وقيل: إن عليا لما نازل قريظة يوم خيبر سمع سب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فانصرف إليه وقال: يا رسول الله، لا تبليغ إليهم، وعرض له. فقال: أظنك سمعت شتمى منهم لو رأوني لكفوا عن ذلك. ونهض إليهم، فلما رأوه أمسكوا. فقال لهم : **انقضت العهد يا إخوة القردة و الحنازير احزاكم الله وأنزل لكم نعمته** ، فقالوا: ما كنت جاهلا يا محمد فلا تجهل علينا، من حدثك بهذا؟ ما خرج هذا الخبر إلا من عندنا (٣٠٠)

والتعبير بالفتح في قولهم: بما فتح الله عليكم . للإيدان بأنه سر مكتوم وباب مغلق في وجه غيرهم فلا ينبغي أن يطلع عليه سواهم.

٧٧ - **أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**. كان اليهود يتصورون أن الله لا يأخذ عليهم الحجة إلا أن **يَقُولُوا** بما أقوالهم للمسلمين، أما إذا كتموا وسكتوا فلن تكون له عليهم حجة ولا يعلمون أن الله سبحانه وتعالى محيط بما يسرونه من أقوالهم عن المؤمنين، وما يعلنونه من النفاق، فلا تعضى عليه حافية من أمرهم، وأنه مطلع رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحي على كيدهم فتحصل المحاجة، كما حدث في آية الرجم وتحريم بعض المحرمات عليهم، فأى فائدة هي اللوم والعتاب، فليرتدعوا عن ذلك ولينزجروا. ولیدخلوا في الإيمان بقولهم.

والاستهزاء هي: **أَوَلَا يَعْلَمُونَ** : إنكارى مؤذن بشناعة نفاق المنافقين منهم وقبح اللوم من أصحابهم لهم على إطلاع المؤمنين على صفة الرسول وغيرها في التوراة مع علمهم أن الله يعلم سرهم ونجواهم.

## أمانى باطلة

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨) قَوْلٌ  
لِلَّذِينَ يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا  
قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كُنْتُمْ آيْدِيهِمْ وَقَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُوبُونَ ﴿٧٩﴾

## المفردات:

أميون : جمع أمى وهو الذى لا يقرأ ولا يكتب، منسوب إلى الأم، وإيدانا بأنه - فى الخلو عن العلم والكتابة - كما ولدته أمه.

أمانى : جمع أمنية، وهى فى الأصل ما يقدره الإنسان فى نفسه مأخوذة من منى إذا قدر، والمراد بها هنا الأكاذيب التى أخذوها عن شياطينهم المحرفين للتوراة كما قاله ابن عباس ومجاهد.

قَوْلٌ لَهُمْ : القول فى الأصل مصدر لا فعل له من لفظه، مثل ويح، والمعنى هلاك لهم وشدة عذاب، وهى كلمة دعاء.

## التفسير:

بعد أن بين سبحانه جنائيات اليهود فى ماضيهم وحاضرهم وفى جعلها تحريفهم لكتاب الله التوراة، من بعد ما عقّله، عقب ذلك بذكر فريق جاهل منهم تأثر بتحريف أجيالهم وصل بإضلالهم وهم الأميون.

٧٨ - وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . أى ومن اليهود قوم أميون لا يعنون الكتابة، ولا يعلمون من كتابهم التوراة سوى أكاذيب اختلقها لهم علماءهم، أو أمانيات باطلة يقدرونها فى أنفسهم بدون حق، أو قراءات عارية من التدبر والفهم، وقصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة اليقين المبني على البرهان القاطع والدليل الساطع.

(ومن هذه الأمانيات والأكاذيب: أن آباهم الأنبياء يسمعون لهم، وأن الله سبحانه وتعالى يعفو عنهم ويرحمهم، وإن كبروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودا، وأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودة، وأنهم صفوة الإنسانية وشعب الله المختار لمصارة الأرض، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن لهم السيطرة على الناس، وغير ذلك من الأمانى التى عنوها هؤلاء صلوا، تبعا لأضاليل أجبارهم) (٢٠١).

ومن قوله تعالى وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ . زيادة تجهيل لهم، لأن أمانياتهم هذه من باب الأوهام التى لا تستند إلى دليل أو شبه دليل، أو من باب الظن الذى هو ركون النفس إلى وجه من وجهين يحتملها الأمر دون أن تبلغ فى ذلك مرتبة القطع واليقين، وهذا النوع من العلم لا يكفى فى معرفة أصول الدين التى يقوم عليها الإيمان العميق، فهم ليسوا على يقين من أمور دينهم، وإنما هم يظنون ظنا بدون استيقان، والظن لا يفنى من الحق شيئا.

ثم أنذر سبحانه الأجرار المحرطين للعق بالهلاك فقال:

٧٩ - فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عَدِّ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ.

أي هلاك عظيم لهؤلاء الذين يحرقون كتاب الله وهو التوراة، إذ يكتبونها بأيديهم ويدسون فيها أكاذيبهم وما يحفظ عليهم رياستهم وجاههم. موهمين المومنين أنها من عند الله ليحملوهم على اعتقادهم، والتعلق بالأمانى التى زينوها فى التوراة؛ يتممون بهذا الفعل ثمنًا قليلًا هو الاحتفاظ بالرياسة، وكل أموال الناس بالباطل، وهم بهذا يرتكبون أكبر جريمة، وهى افتراء الكذب على الله، ويغتارون الباطل وينبذون الحق فيكونون بذلك كمن يبيع شيئًا نعيمًا عالى القيمة بثمان تافه.

قال السدى كان ناس من اليهود كتبوا كتابًا من عندهم يبيعهونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله ليأخذوا به ثمنًا قليلًا (٧٠٢).

وقال الزهرى عن ابن عباس: يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتاب الله الذى أنزله على نبيه أحدث أخبار الله تقرأونه غضا ثم يشب، وقد حدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، أهلا بئهاكم ما جاكم من العلم عن معارفهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدًا سألكم عن الذى أنزل عليكم (٧٠٣).

ومن أسباب تحريف التوراة، ضعف علماء اليهود وانصراف الناس، عنهم فضع العلماء إلى أمور ترغب الناس فيهم والحقوق بالتوراة وقالوا: هذا من عند الله ليقبلوه عنهم فتتأكد رياستهم، وكان مما أحدثوا فيها أن قالوا: ليس علينا فى الأميين سبيل (آل عمران: ٧٥)، يمتنون بالأميين العرب، ويمنون بأنهم ليس عليهم فى الأميين سبيل. أن ما أخذوا من أموالهم فهو حل لهم، ومنه قولهم: لا يضرننا ذنب فنحن أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمسنا إلا أيامًا معدودات، إلى غير ذلك مما كذبهم الله فيه فقال: فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ، من تحريف كلام الله وتبديله وسوء تأويله وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ. بالباطل من جاه ورياسة ومال

## غرور وادعاء

﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتُخَذُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

## المفردات:

- لن تمسنا النار : لن تصيبنا، والمسن اتصال أحد الشيئين بالآخر وإصابته له.
- أياماً معدودة : يضبطها العد فهي إذن قليلة، والعرب تقول شيء معدود أى قليل، وغير معدود أى كثير.
- على : حرف جواب كنع، إلا أنها لا تقع إلا جواباً لنفى متقدم سواء أدخله استفهام أم لا. وتفيد إثبات ما بعدها.
- الكسب : جلب النعم واستعماله فى السيئة من باب التهمك.
- وأحاطت به خاطبته : الحاطية - السيئة التى استمكنت من النعم وحملتها على تجيب الصواب عمدًا.
- وأحاطتها به : شمولها له واستيلائها على جميع تصرفاته، كما يعيط الذئب بلابسه.
- تمهيد : -

ذكر الله فى هذه الآية صرياً من ضروب عرورهم وصلفهم وادعائهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وهو لا يعذبهم دوماً بل يعذبهم تعذيب الأب ابنه والحبیب حبيبہ وقتاً قصيراً ثم يرضى عنهم.

## التفسير:

٨٠ - وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . أكثر اليهود على أن النار تمسهم سبعة أيام لأى عمر الدنيا عديم سبعة آلاف سنة فمن لم تدركه النجاة يمكث فى النار سبعة أيام عن كل ألف سنة يوم، وقيل إنها تمسهم أربعين يوماً، هى المدة التى عبدوا فيها العجل.

روى الإمام أحمد والبخارى والمصائى وابن مردويه والقططه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال لما فتحت حبيب أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجمعوا لى من كان من اليهود هنا .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من أبوكم؟ » قالوا: فلان. قال: « كذبتكم بل أبوكم فلان . فقالوا: صدقت وبررت. ثم قال لهم: « هل أنتم صادقى عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم وإن



كديباك عرفت كذبنا كما عرفت هي أبينا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمن أهل النار؟ فقالوا: يكون فيها يسيرا ثم تخلقونا فيها. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: احسبوا والله لا نحلفكم فيها أبدا ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أنتم صادقين عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جعلتم في هذه الشاة سمًا؟ فقالوا: نعم. فقال: (فما حملكم على ذلك؟ فقالوا- أردنا إن كنت كاذبا أن نستريح منك وإن كنت نبيا لم يضرك) (٢٠٤).

قُلْ أَتُحَدِّثُكُمْ عَدَّ اللَّهُ عَهْدًا هَلْ يَحْلِفُ اللَّهُ عَهْدَهُ . إِيَّاهُ عَهْدُ إِلَيْكُمْ رِيكُمْ بِذَلِكَ وَوَعْدَكُمْ بِهِ وَعْدًا حَقًّا إِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُونَ هَلْ يَخْلِفُ اللَّهُ عَهْدَهُ.

أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . إِيَّاهُ أَنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ شَيْئًا لَا عِلْمَ لَكُمْ بِهِ، فَإِنْ مِثْلُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِوَحْيِ يَبْلُغُهُ الرِّسَالُ عَنْهُ وَيَدُونَ هَذَا يَكُونُ افْتِنَانًا عَلَى اللَّهِ وَجَرَامَةً عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ قَوْلٌ بِلَا عِلْمٍ فَهُوَ كَثْرُ صِرَاحٍ.

وخلاصة هذا: إن مثل ذلك القول يحتمل أمرين لا ثالث لهما:

إما اتخاذ عهد عند الله به، وإما القول عليه سبحانه بدون علم، وما دام قد ثبت أن اتخاذ العهد لم يحصل، إذاً هاتين يا معشر اليهود كاذبتان فيما تدعون من أن النار لن تمسك إلا أيامًا معدودة.

قال الإمام الرازي: قوله تعالى: أَتُحَدِّثُكُمْ . ليس باستفهام بل هو إنكار لأنه لا يجوز أن يجعل الله تعالى حجة رسوله في إبطال قولهم أن يستمعهم بل المراد التنبيه على طريقة الاستدلال، وهى أنه لا سبيل إلى معرفة هذا التقدير إلا بالسمع، فلما لم يوجد الدليل السمعى وجب ألا يجوز الجزم بهذا التقدير (٢٠٥).

٨١ - بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . أى ليس الأمر كما ذكرت، بل تمسك النار وتمس غيركم دهرًا طويلًا . فكل من أحاطت به خطيئته، وأخذت بجوانب إحساسه ووجدانه، واسترسل في شهواته، وأصبح مسجين ألامه فجزاؤه النار خالدًا فيها أبدا لما افتتروا من أسبابها بانغماسه في الشهوات التى استوجبت ذلك العقاب، والمراد بالسيئة هنا الشرك بالله، وصاحبه مظل في النار، وبعض العلماء حمل السيئة على معناه العام، وقال إن الخلود هنا المكث الطويل بمقدار ما يشاء الله، فالماضى مرتكب الكبائر يمكنه فيها ردها من الزمان ثم يخرج منها متى أراد الله تعالى (٢٠٦).

وهي الآية تحذير من ارتكاب السيئات، فإنها تؤدي إلى التماهى فيها فلا يبالي صاحبها بالكفر، همل من يرتكب سيئة أن يبادر بالتوبة منها، فإن لم يبادر بها، أحاطت الخطيئة بقلبه فأصبح مظلماً لا ينفذ إليه النور، فيكفر والمهاد بالله تعالى.

روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم والسنائي وغيرهم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن العبد إذا أدب ذنبًا نكتت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تملو قلبه، هذلك الزان الذى ذكره الله تعالى في القرآن. كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » (٢٠٧).

٨٢ - وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ . أى والذين آمنوا بالله ورسوله

وأطاعوا الله فأقاموا حدوده وأدأوا فرائضه واجتنبوا معارمه، فأولئك هم أصحاب الجنة الجديرون بدخولها والخلود فيها خلوداً أبدياً.

وفى هذا دليل على أن دخول الجنة منوط بالإيمان الصحيح والعمل الصالح معاً، كما روى أن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: يارسول الله قل لى فى الإسلام قولاً أوهّل فيه لعلى أعيه، فقال له النبى (ﷺ) : « قل أمنت بالله ثم استقم » (٢٠٨) رواه مسلم.

★ ★ ★

## الميثاق

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾

المفردات:

**الميثاق** - العهد المؤكد، وهو قسمان: عهد خلقه وقطره، وعهد نبوة ورسالة وهو المراد هنا، وهذا العهد أخذ عليهم على لسان موسى وغيره من أنبيائهم..

**ويالوالدين إحساناً** : أى تحسنون بالوالدين إحساناً مطلقاً بلا حدود.

**والمساكين** : الذين أذلّتهم الحاجة وأسكنّتهم.

**وقولوا للناس حسناً** : أى قولوا لهم حسناً وهو ما تطيب به النفوس ومنه الأمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر فى غير عنف ولا خشونة.

التفسير:

٨٢ - وَإِذْ أَخَذْنَا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً. واذكروا يا بني إسرائيل لتعبدوا وتستجيبوا للحق - وليذكر معكم كل من يتفق بالذكرى - وقت أن أخذنا عليكم العهد وأمرناكم بالعمل على لسان رسلنا عليهم السلام. وأمرناكم فيه بالألّا تعبدوا سوى الله، وأمرناكم فيه كذلك بأن تحسنوا إلى أنالكم وتقوموا بأداء ما أوجبه الله لهما من حقوق، وأن تصلوا أقرباءكم وتعلموا على اليتامى الذين فقدوا آبائهم، وعلى المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم فى حياتهم، وأمرناكم فيه أيضاً أن تقولوا للناس قولاً حسناً هبه سلاحهم وشعبهم، وأن تحافظوا على فريضة الصلاة، وتؤدوا بإحلاص ما أوجبه الله عليكم من زكاة، ولكنكم نقضتم أنتم وأسلافكم الميثاق وأعرضتم عنه إلا قليلاً منكم استمروا على رعايته والعمل بموجبه.

وقد تضمنت الآية الكريمة لونا فريدا من التوجيه المحكم الذى لو اتسموه لحسنت صلتهم مع الخالق والمخلوق، لأنها ابتدأت بأمرهم بأعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تعالى عليهم، بأن يعبدوه ولا يشركوا به

شيئاً، ثم تثبت ببيان حقوق الناس فبدأت بأحقتهم بالإحسان وهما الوالدان لما لهما من فضل الولادة والعطف والتربية. ثم الأقارب الذين تجمع النام بهم صلة وقرابة من جهة الأب والأم، ورعايتهم تكون بالقيام بما يحتاجون إليه على قدر الاستطاعة، ثم باليتامى لأنهم في حاجة إلى المولى بعد أن فقدوا الأب الحانى، ثم بالمساكين لعجزهم عن كسب ما يكفيهم، ثم بالإحسان إلى سائر الناس عن طريق الكلمة الطيبة ولعاملتها الحسنة، لأن الناس إن لم يكونوا في حاجة إلى المال فهم في حاجة إلى حسن المقال، ثم أرشدتهم إلى العبادات لنتي نعينهم على إحسان صلتهم بالخالق والمخلوق، فأمرتهم بالندامة على الصلاة بخصوع وإحلاص، وبالحفاظة على أداء الركاة بسخاء وطيب خاطر، ولعظم شأن هاتين العبادتين اليدبة والمالية ذكرنا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة الله، تفخيماً لشأنهما وتوكيداً لأمرهما، وكان من الواجب على بنى إسرائيل أن ينتظموا بهذه الأوامر الحكيمة، ونكتهم عموا وصموا عنها فوبخهم القرآن الكريم بقوله: **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ**.

فقد أصبحت الآية عما كان من أكثرهم، بعد أخذ الميثاق عليهم، بما فيه خيرهم وسعادتهم - وهو أنهم تولوا عن العمل به، وهم معرضون غير مكترئين بما يترتب على إعراسهم، أما القليلون منهم فإنهم «اترموا» العمل بالميثاق، وحافظوا على تنفيذه وهم المخلصون في إيمانهم من أسلافهم - قبل أن تسخ شريعهم بالإسلام - ومن آمن بعمد صلى الله عليه وسلم وحافظ على هذا الميثاق الموجود في سائر الأديان كمبد الله بن سلام وريد بن سمنة.

وقوله: **وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ**، لتأكيد توليهم، أى ثم توليتم وأعرضتم عن تنفيذ هذا الميثاق وأنتم قوم عادتكم التولى والإعراس عن الموائيق، وهى عادة ورثموها عن آلائكم، ويؤخذ كونها عادة لهم من الحملة لاسمية الدالة على الثبوت، **وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ**.

وهى الآية التفات من القبة إلى الخطاب للحاضرين من اليهود فى قوله **ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ** لأنهم حلف لهؤلاء السابقين، فى السير على نهجهم فى نقص اليهود وعدم احترام الموائيق فإنهم هم، فلذا خوطبوا بتوليهم وإعراسهم.

قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار (قد يتولى الإنسان منصرفاً عن شىء وهو عازم على أن يعود إليه، ويؤديه حقته، فليس كل متول عن شىء معرضاً عنه ومهملاً له على طول الدوام، لذلك كان ذكر هذا التقييد **وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ**، لازماً لابد منه وليس تكراراً كما يتوهم)<sup>(٣٩)</sup>.

## تناقض

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْسِلُوكَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَبْظَاهِرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَقْتُلُوهُمْ وَهُمْ مَحْرُومٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُونُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَحْقُقُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾

المفردات:

لا تفسكون دماءكم

: تريقونها، بأن يقتل بعضهم بعضاً.

تظاهرون عليهم

: أصله تتظاهرون، فحذفت إحدى التاجين تحميصاً، أى تتعاونون عليهم.

الإثم

: هو الفعل الذى يستحق صاحبه الذم، واللوم.

العدوان

: تجاوز الحد فى الظلم.

أسارى

: جمع أسير بمعنى مأسور، وهو من يؤخذ فى سبيل القهر والغلبة.

تقتلوههم

: تقتلوههم يدفع الفداء، وهو ما يدفع فى تلك الأسير.

خزى

: هوان.

يردون

: يرجعون.

اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة : آثروا متاعها على نعيم الآخرة.

تمهيد:

ذكر الله بى إسرائيل فى الآية السابقة، بأهم الأوامر التى أخذ عليهم العهد والميثاق أن يفعلوها.

وهما ذكرهم بأهم المنهيات التى أخذ الميثاق عليهم فى التوراة بأن ينتهوا عنها فلم ينتهوا.

جاء في عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير:

يقول الله منكرًا على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل بنو قينقاع وبنو النضير وحلفاء الخزرج، وسو قريظة وحلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهود أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق، وذلك حرام عليهم في دينهم ومن كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم، ويهتجون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استصكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ولهذا قال تعالى: **أَفْزَمُونُ بَعْضُ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضُهُ** . (٢١٠).

ويحكى التاريخ أن العرب كانوا يعيرون اليهود فيقولون لهم كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم؟ فكان اليهود يقولون قد حرم علينا قتالهم ولكننا نمتحن أن نخذل حلفائنا، وقد أمرنا أن نفتدى أسرانا.

#### المعنى الإجمالي للآيات:

واذكروا - أيضاً - يا بني إسرائيل وقت أن أخذنا عليكم العهد، وأوصينا فيه بالآلئ نعرض بعضكم لبعض بالقتل، وبالأ يخرج بعضكم بعضاً من مساكنهم، ثم أقررتم وأنتم تشهدون على الوفاء بهذا العهد والالتزام به

ثم أنتم هؤلاء - يا معشر اليهود - بعد إقراركم بالميثاق وبعد شهادتكم المؤكدة على أنفسكم بأنكم قد قبلتموه، خرجتم على تعاليم التوراة، تنقضتم عهودكم وأراق بعضكم دماء بعض، وأخرجتم إخوانكم في الملة والدم من ديارهم وتعاونتم على قتلهم وأخرجهم مع من ليسوا من ملكتكم أو قراحتكم . ومع ذلك فإذا وقع إخوانكم الذين قاتلتهم وأخرجتمهم من ديارهم في الأسر فاديتهمهم . فلم تنبهموا حكم التوراة في النهي عن قتالهم وإخراجهم، كما اتبعت حكمها في معاداتهم، وكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم؟ إن هذا التصديق بين أحكام الله، حراء فاعله الهوان في الدنيا والعذاب البدن في الآخرة، وما الله بفاعل عما تعملون، ولا شك أن أولئك اليهود الذي نقضوا عهودهم وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، قد باعوا دينهم بديارهم فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعصرون.

#### في أعقاب التفسير:

١ - جعل الله الأمة المتواصلة بالدين وحدة متكاملة كالبنين المرصوصين يشد بعضهم بعضاً فإذا اعتدى أحد على أخيه فكانما يعتدى على نفسه ويضعف نفسه.

#### قال ابن كثير:

ولهذا قال تعالى: **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ** . أي . لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرج من منزله ولا يظهر عليه كما قال تعالى:

**فَتُوبُوا إِلَى بَرِّئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ** . (البقرة : ٥٤) وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال - عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» (٢١١).

٢ - وقال السيد رشيد رضا في تفسير المنار:

وقد أورد سبحانه النهي عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم مضافاً من ديارهم وأوطانهم، بعبارة تؤكد وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثراً شريفاً، يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر بوجودان يتأثر فقال تعالى:

لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ . يجعل دم كل فرد من أحرار الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه بضع نفسه وانتحر بيده . وقال تعالى: وَلَا تَحْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ . على هذا المسق، وهذا التعبير المعجز ببلوغته، خاص بالقرآن الكريم<sup>(٢١٧)</sup>.

٣ - قوله تعالى وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أَصَارٌ نُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ . بيان لتناقضهم وتزييفهم لأحكام الله تعالى.

أي انتم يا معشر اليهود إن وجدتم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم أسرى تسعون في هلاكهم، وتبدلون عوضاً لإطلاقهم، والشأن أن قتلهم وإخراجهم محرم عليكم كتركهم أسرى في أيدي أعدائكم. فلماذا لم تتسوا بحكم التوراة في النهي عن قتالهم وإخراجهم كما التفتكم حكماً في مفاداتهم؟

وصدرت الجملة الكريمة وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ . بضمير الشأن للاهتمام بها والعناية بشأنها، وإظهار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور لديهم وليس خافياً عليهم. وقوله تعالى: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ . توبيخ وتقرير لهم على تفرقتهم بين أحكام الله.

والعنى: أعتنموا أحكام كتابكم في فداء الأسرى، ولا تنعمونها في نهيككم عن قتال إخوانكم وإخراجهم من ديارهم؟ فالاستفهام للإنكار والتوبيخ على التفرق بين أحكامه تعالى، بالإيمان ببعضها والكفر بالباقي الآخر.

قال الأستاذ أحمد شاكر معلقاً على تفسير ابن كثير للآية الكريمة:

( ومما يملأ النفس ألماً وحزناً، أن صار أكثر الأمم التي تنسب للإسلام إلى هذا الوصف المكروه، ووقعوا في مثل هذا العمل الذي دم الله اليهود من أجله، وجعل جزاء من يقبله خزيًا في الحياة الدنيا وعذاباً شديداً في الآخرة، فنرى أكثر الأمم المنتمية إلى الإسلام يعتقدون صحة القرآن ويشهدون بذلك ويمرّفونه، ويزعمون القيام بأمره - ثم هم يخالفونه في التشريع في شؤونهم المالية والجنائية والخلقية، ولا يستحيون أن يعلنوا أن تشريعه وتشريع رسول الله في سبته لا يوافق هذا العصر، ويجعلون من حقوقهم أن يشرعوا ما شاؤوا، وافق الكتاب والسنة أم خالفه. أو يصطوبون قوانين أوروبا الوثنية الملحدة، ويشربونها في قلوبهم، يرعونها أهدى وأنصع للناس مما أرسل إليهم من ربهم، ولا يتعظون بما أمدّهم به ربهم من المثل بالأمم قبلهم )<sup>(٢١٨)</sup>.

يقول الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين: «ولما سمى سبحانه عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كبراً، لأن من عصى أمر الله تعالى بحكم عملي معتقداً أن الحكمة الصلاح فيها فعله، بحيث يتعاطاه دون أن يكون في قلبه أثر من التعرج، ودون أن يأخذه ندم وحزن من أجل ما ارتكب، فقد خرج بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين، وهي الآية الكريمة دليل واضح على أن الذي يؤمن ببعض ما تقرر في الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه، يدخل في زمرة الكافرين لأن الإيمان كل لا يتجزأ»<sup>(٢١٩)</sup>.

لقد توعد الله من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه بالخزى والمذلة فى الدنيا، وبأشد ألوان العذاب يوم القيامة ثم أكد سبحانه هذا الوعيد الشديد وبين علته فقال تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ**.

والمعنى: أولئك اليهود الذين فرقوا أحكام الله، وباعوا دينهم بدنياههم وآثروا متاع الدنيا على نعيم الآخرة قد استحقوا غضب الله فلا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة، ولا يجدون من دون الله وليا ولا نصيرا.

★ ★ ★

## تكذيب وقتل

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

المضردات:

الكتاب : التوراة.

وقفينا من بعده بالرسول : أى بمشاهم على إثره إليهم يقال: قفاه به أى اتبعه إياه وأرسله على إثره.

عيسى : بالصريانية يسوع.

مريم بالعبرية : الخادم لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس.

وأيديناه : قويناه، من آد الرجل إذا اشتد وهوى.

بروح القدس : القدس الطاهرة، وروح القدس هو جبريل عليه السلام أى الروح المظهر.

غلغف : جمع أعلف أى: مقشاة بأغلفة مائمة من وصول الهدى إليها ..

تمهيد:

حرت سنة الله فى البشر أنه إذا طال عليهم الأمد بعد أن يأتهم الرسل تقسو منهم القلوب، ويذهب أثر الموعظة من الصدور، ويفسقون عن أمر ربهم ، قال تعالى: **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ طَالَّ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَنَسُوا قُلُوبَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**. (الحديد ١٦)، من أجل هذا كان سبحانه يرسل الرسل بعضهم إثر بعض حتى لا يطول الإندار فتقسمو القلوب، وقد كان الشعب الإسرائيلى أكبر الشعوب حظا فى عدد الرسل الذين أرسلوا إليهم، فليس لهم من المنذر ما

يبيعون نسيان الشرائع أو تحريفها وتأويلها، ولكن كانوا يطيعون أهواءهم ويتبعون شهواتهم ويعصون رسلهم فمنهم من كذبوه ومنهم من قتلوه.

### التفسير:

٨٧ - ولقد آتينا موسى الكتاب وحققنا من بعده بالرُّسل . هذا تذكير من الله لبني إسرائيل بصرب من النعم التي أسمع بها عليهم فقاتلوها بالكفر والعصيان. وهي أن الله سبحانه أرسل موسى عليه السلام إليهم، وآتاهم التوراة فيها هدى وبور لهدايتهم فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها.

وأرسل الله الرسل والنبيين من بعد موسى ليحكموا بشريعته ويقتطوا أثره (٢١٥).

ومن هؤلاء الرسل: يوشع وداود وسليمان وعزير وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويعيسى عليهم السلام، فلم يكن لبني إسرائيل عذر يعتذرون به عن مخالفة الشرائع أو تحريفها أو تدمير أوصاعها.

فقد توالى الرسل بعد موسى ليتوالى تفسير التوراة بما تلاها من أسفار رسل بني إسرائيل، ولطول الفترة بين موسى وعيسى فقد كانت خمسين وعشرين وتسعمائة وألف سنة على ما قيل. قال تعالى: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَتَرَاءِ الْمُؤْمِنُونَ : (٤٤).

حتى ختم الله أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البينات - وهي المعجزات - ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به. قال تعالى:

وَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ . إِيَّاهُ اعْمَلُوا الْآيَاتِ الْوَاضِحَةِ الدَّالَّةِ عَلَى بَيِّنَاتِهِ، كَأَنبَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَرْضِ وَأَحْيَاءِ الْمَوْتِ بِلَا إِلَهٍ، وَالْإِنْخِبَارِ بِبَعْضِ الْغَيْبِيَّاتِ، وَكَذَلِكَ آيَاتُ الْإِنْجِيلِ.

وَأَيُّدَاةُ بَرُّوحِ الْقُدُسِ . إِيَّاهُ اعْمَلُوا اللَّهُ جَبْرِيلُ الْأَمِينُ الَّذِي يُؤَيِّدُ اللَّهَ بِهِ أَنْبِيَائِهِ.

### قال ابن كثير:

وروح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود في تفسير الآية وتابعه على ذلك ابن عباس وغيره مع قوله تعالى:

بَرُّوهُ بِالرُّوحِ الْأَمِينِ (١١٦) عَلَى قَلْبِكَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١١٥) (الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤)

وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لحيان بن ثابت متبراً في المسجد فكان يناعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله: «اللهم أيد حسناً بروح القدس كما ناعه عن نبيك» (٢١٦).

رواه البخاري، ورواه أبو داود والترمذي وموصولا، وقال الترمذي حسن صحيح.

وعن أبي هريرة: (أن عمر بن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه، فقال: قد كنت أشد فيه، وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة فقال: أنشدك الله، أسمعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «أجب عني، اللهم أيد بروح القدس؟ فقال اللهم نعم» (٢١٧).



وفي بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم أو هاجهم - وجبريل ملك » (٢١٨).

« وإنما خص عيسى عليه السلام بالذكر من بين أنبياء بني إسرائيل لكونه صاحب كتاب نسخ بعض أحكام شريعة موسى عليه السلام » (٢١٩).

أفكلما جاءكم رسول بما لا نهى أنفسكم استكبرتم ؟

أي أبلغ بكم الأمر أنكم كلما جاءكم رسول من رسل الله الذي نهى أنفسكم استكبرتم عليه تجبراً وبغيّاً في الأرض ؟

فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون . أي فبعضاً منهم تكذبون كعيسى ومحمد عليهما السلام وبعضاً تقتلون كزكريا ويحيى عليهما السلام . فلا عجب بعد هذا إن لم تؤمنوا بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن العناد والجور من طبيعتكم .

٨٨ - وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ . أي أمر اليهود على العناد الكفر وعدم الاستماع إلى ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم معللين عدم إيمانهم بأن قلوبهم مغطاة بأغشية لا ينفذ منها إلى قلوبهم ما جاء به - صلوات الله عليه - حتى تقفه عقولهم .

على حد قول مشركي مكة . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُوا إِلَيْهِ وَفِي آدَانَا وَقرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَنَبِّئكَ حِجَابٌ (فصلت : ٥) .

يؤمن أن قلوبهم ليس فيها استعداد لقبول ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد كذبوا ، فإنه دين المبطرة ، فلو تركوا فطرتهم كما خلقت عليه لقبته وأمت به ، ولكنهم استكبروا وآثروا الصلابة على الهدى فلمنهم الله بكفرهم وأوهن يقينهم .

بل لعنهم الله بكفرهم . و . بل . هنا للإضراب الإبطالي ، ورد ما يقولون أي : ليس الأمر كما زعموا بل أبدهم الله عن رحمته بأن خذلهم وتركهم وشأنهم ، بسبب إصرارهم على الكفر وعنادهم في قبول الحق ، فاستحقوا أن يحرمهم الله من لطفه ورحمته . وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون . (آل عمران : ١١٧) .

قليلاً ما يؤمنون . أي فهم يؤمنون إيماناً قليلاً ، وهو إيمانهم ببعض الكتاب وتحريف بعضه الآخر أو ترك العمل به ، والذين آمنوا به كان هؤلاء باللسان تكذبه الأعمال ، إذ لم يكن للإيمان سلطان على قلوبهم ، فيكون هو المحرك لإرادتهم ، وإنما يهركها الهوى والشهوة ، ويصرفها عامل اللذة .

وقد يكون المعنى كما قال ابن جرير الطبري : إنه لا يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وما جاء به إلا القليل منهم ، فالمخالفة لم تغير كل الشعب ، بل غيرت الأكثر منهم ونجا نفر قليل .

## حسد وبقى

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِشِمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءَ وَبِعْضِبٍ عَلَى عَضِبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَزْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

المضمرات :

يستفتحون : يستصرون من الاستفتاح وهو طلب الفتح والنصرة.

لعنة الله : اللعنة : الإبعاد والطرد من مواقع رحمة الله.

اشتروا به : شري واشتري يستعملان حيناً بمعنى باع، وآخر بمعنى أخذ والمراد هنا الأول.

بغيا : البغي في الأصل الفساد من قولهم بغى الجرح إذا قسد ثم أطلق على مجاوزة الحد في كل شيء.

باعوا : رجموا

مهين : فيه مهانة وإذلال.

وراءه : سواء كما يقول الرجل لم يتكلم بجيد الكلام ما وراء هذا الكلام شيء.

تمهيد :

كانت اليهود تبشر العرب بنبي سيظهر، ويقولون للمرب سننبهه وننتصر به عليكم ، فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم من نسل إسماعيل ولم يكن من نسل إسماعيل تركوا دعوته حسداً وكبراً.

روى محمد بن إسماعيل عن ابن عباس أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل معثته، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ ابن جبل وبشر بن البراء بن معمر وداود بن سلمة : يا مشرك اليهود، اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه ميموث. وتصفوه بصمته فقال سلام بن معلم أخو نسي البضير : ما جأنا بشيء نمره، وما هو يائذي كما نذكركم هانزل الله في ذلك من قولهم. ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم .

التفسير :

٨٩- وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .

ولما جاءهم رسولنا بالقرآن وهو كتاب من عند الله مصدق لما أنزل عليهم من التوراة وموافق له في التوحيد وأصول الدين ومقاصده. وكانوا يستفتحون بهذا النبي على مشركي العرب وكفار مكة ويقولون إن كتابه سينصر التوحيد الذي جاء به موسى، ويفسد الوثنية التي تتحلونها.

فلما جاءهم الكتاب الذي عرفوا أنه من عند الله كفروا به، وسبب هذا أنهم حسدوا العرب على أن بعث الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - من بينهم فحملهم ذلك على الكفر به جهوداً وعناداً فسجل الله عليهم الطرد والإبعاد من رحمته لجحودهم بالحق بعد أن تبين لهم.

وقيل إن المراد بلفظ، مَّا عَرَفُوا، هو النبي صلى الله عليه وسلم واستعمال، مَّا، فيمن يعلم كثير كتوله تعالى: وَالسَّمَاءُ مِا بَآهَا . (الشمس : ٥) يعني ومن بناها وعلى هذا تكون جملة، كَفَرُوا بِهِ، جواباً عن فلما جاءهم مَّا عَرَفُوا .

أما جواب: وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ . فمقدر تقديره كذبوه، وقد دل عليه جواب الثانية. والمعنى عليه. فلما جاءهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي عرفوا صفاته ونبوته من التوراة معرفة لا يخالجه ريب حسدوه لأنه من العرب أولاد إسماعيل وملأ الحسد قلوبهم غيظاً، إلا لمة الله على أمثالهم من المعادين الحادين.

٩٠- يَسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَعِثْنَا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ قِبَآءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ .

كان اليهود ينتظرون بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فلما جاءهم حسدوه واستبدلوا بالإيمان الذي هيأ الله لهم أسبابه ليسعدوا .. استبدلوا به الكفر الذي يؤدي بهم إلى الشقاء الدائم، وآثروه عليه فكان اختيارهم الكفر على الإيمان، بمنزلة بيع أنفسهم بالكفر إلى النار.

ولما كانت الخسارة هي ذلك الاستبدال عظيمة قال سبحانه: يَسْمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ. أي يسما باعوها به. أن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ، فالكفر هو التمس الذي باعوا به أنفسهم والمشتري الشيطان أو جهنم، وكل ذلك من باب التصوير والتشثيل لتحويل سوء ما اختاروه وتقبيحه.

وقوله تعالى: بَعِثْنَا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ . تعليل لكفرهم وبيان للباعث عليه، أي كفروا بما أنزل الله على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بدافع من البقي والحقد ناقمين على غيرهم أن حصنهم الله دويهم بإرسال رسول منهم متكبرين على الله أن يكون له مطلق الخيرة هي أن يزل من فضله على من يشاء من عباده.

قِبَآءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ، أي استوجبوا واستحقوا ورجعوا بغضب شديد مؤكد لصدوره من الله تعالى.

وقال ابن عباس: فالغضب على الغضب: غضبه عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وعضب بكفرهم بهذا النبي الذي أحدث الله إليهم (١٣٠).

وقال الترمذى: فإِذَا رَأَى بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ - هصاروا أحقاء بغضب مترادف لأنهم كفروا بنبي الحق وبفؤاء عليه.

وقيل كفروا بمحمد بعد عيسى، وقيل بعد قولهم - عزيز ابن الله، وقولهم يد الله مغلولة، وغير ذلك.

وللكافرين عذابٌ مُهِينٌ. أى ولهم عذاب مهين مثل جزاء كفرهم واستكبارهم، وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا والآخرة.

٩١ - وإذا قيل لهم أسروا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا. أى وإذا دعوا إلى الإيمان والتصديق بما أنزل الله على نبيه محمد أنكروا وعارضوا وقالوا مستكبرين: إنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل على أنبيائهم، زاعمين أنه لا حق إلا عندهم يريدون بذلك أن يتحكموا فى وحى الله وفصله.

ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم. أى وهم يكفرون بما سوى التوراة وهو القرآن الذى جاء مصدقاً لها، وهو الحق الذى لا شك فيه، وكيف يكفرون به وهو مؤيد عندهم بالمقل والنقل. ثم إن كفرهم بهذا الكتاب المصدق لما فى كتابهم هو كفر يكتابهم نفسه.

قُلْ لِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. أى قل يا محمد لهؤلاء اليهود الذين إذا دعوتهم إلى الإيمان بك قالوا- نؤمن بما أنزل علينا. قل لهم- إن كنتم حقاً مؤمنين بما أنزل عليكم وهو التوراة، فلماذا تقاتلون أنبياء الله مع أن التوراة تحرم عليكم قتلهم، بل هى تأمركم باتباعهم وتصديقهم وطاعتهم.

إن قتلتمهم أكرمهم أكبر دليل على أنكم لم تؤمنوا، لا بما أنزل عليكم ولا بغيره، وأنكم كاذبون فى مدعائكم لأن جميع ما أنزل الله من وحى يعرهم قتل الأنبياء ويأمر الناس باتباعهم وطاعتهم

ويرجع معنى الآية إلى نفي فعل الشرط وهو كونهم مؤمنين، إذ لا وجه لقتلهم الأنبياء إلا عدم إيمانهم بالتوراة، وهذا كما تريد أن تنفى عن رجل العقل لعمله ما ليس من شأنه أن يصدر عن عاقل فتقول له: إن كنت عاقلاً فلم فعلت كذا؟ أى أنت لست بعاقل.

والعالم فى قوله تعالى: فَلَمْ يَقْتُلُوا. واقعة فى جواب شرط معذوف دل عليه ما بعده، والتقدير إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم علم تقتلون أنبياء الله تعالى. وقد نسب القتل إليهم مع أنه فعل أسلافهم، لبيان وحدة الأمة وتكافئها، وأنها هى الطوائف والأخلاق المشتركة كالشخص والواحد، مما يصيبها من حسنة أو سيئة، فإنما مصدره الأخلاق العالية عليها فما حدث منهم كان عن أخلاق راسخة فى الشعب تبع فيها الآخرون الأولين. إما بالعمل بها، وإما بترك الإكثار لها، (ولإشعار بأن الحلف يمشون على عمية السلف فى التقدي والمصيان، فلقد حاول اليهود المفاصرون للمهد النبوى قتل الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولكن الله تعالى عصمه منهم ونجاه من مكبرهم).

واضاف سبحانه - الأنبياء إليه فقال: أنبياء الله . للتبنيه على شرفهم العظيم، والدلالة على فطاعة عصيان اليهود واجتراحهم المتكر، إذ قابلوا بالقتل من يجب عليهم أن يقابلوهم بالتصديق والتوقير والطاعة.

★ ★ ★

### صبيان ومخالفة

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَايَا مُّرُكُم بِهِ لَا يَسْمَعُونَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

المفردات:

البيّنات جمع بيّنة وهي الآيات الدالة على صدقه، وحقيقة نبوته، كاتقلاب المصاحبة، وخلق البحر، وانفجار الميؤن من الحجر .

العجل هو ما صنعه لهم السامري من الحلي تمثالا على صورة المعجل

الطور هو الجبل المعروف في شبه جزيرة سيناء .

واشربوا في قلوبهم - اشرب قلبه كذا أي حل محل الشراب، كأن الشيء يساغ فهو يسرى في قلب المحب ويمارجه كما يسرى الشراب العذب البارد في اللهاة، وحقيقة أشربه كذا، جعله شاربيا له .

التفسير:

٩٢ - ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون أي وثقد أرسلنا إليكم موسى بالآيات الواضحة، والأدلة القاطعة، والبراهين الناصعة على توحيد الله وعظيم قدرته، فعالمتم ذلك وعصيتهم أمره، وعبدتم عجل السامري من بعد ذلك، فهذا ظلم ووضع الشيء في غير موضعه اللائق به، لأنكم تركتم عبادة من يستحق العبادة وهو الله تعالى وعبدتم المعجل الذي لا يملك ضررا ولا نفعا (٢٢١).

والتعمير بالجملة الاسمية - وأنتم ظالمون فيه دلالة على ثبات الظلم واستقراره فيهم، وأنه شأن من شئوهم، ولقد سبق التنبهيت بانخاذهم المعجل في قوله تعالى: وإذ أخذنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . (البقرة - ٥١) وأعيد هنا بعبارة أخرى في سياق آخر، وهو أن الآيات البيّنات الدالة على السوء والوحدانية، مثل الطولوان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وخلق البحر وتظليلهم بالظلم

والمن والعلوى والحجر. هذه الآيات لم تزدهم إلا إيفالا في الشرك وانهماكاً في الوثنية. ثم اتحدتم العجل من بعده أي ثم اتخذتم العجل من بعد مجئ موسى بالبيات على رسالته. وصحة ما دعاكم إليه من توحيد الله بالمبادء.

والتميز بقوله: من بعده . يعيد أنه لم يكن لهم عذر في ذلك الاتخاذ فإنه بعد بلوغ الدعوة قامت الحجة عليهم.

والآية الكريمة فيها إبطال دعواهم بما أنزل عليهم لأنهم لو كانوا مؤمنين حقاً بنبيهم الذي جاء بالبينات لما تركوا ما أمرهم به وهو عبادة الله. وفعلوا ما نهاهم عنه وهو عبادة العجل.

### وقال ابن كثير:

من بعده أي من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله كما قال تعالى: واتحد قوم موسى من بعده من حليهم عملاً حسداً له حوراً لم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتحدوه وكانوا ظالمين. (الاعراف: ١٤٨)

٩٢ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَاكُمْ بِقُرَّةٍ وَأَسْمَعُوا . واذكروا يا بني إسرائيل، إذ أخذنا الميثاق المؤكد عليكم بأن تعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعملوا بشرعه، وكان أحد الميثاق عليكم هي موقف كله رهبة وخشوع وبيان لقدرة الله على عقاب من لم يمثل إذ رفع فوقكم جبل الطور كأنه ظلة تظلكم، وطبستم أنه سيقع عليكم، وطلب منكم حينئذ أن تأخذوا ما آتاكم من الشرع بقوة بأن تسمعوا سماع تدبر، وفهم وقبول وتعملوا بما جاءكم فيه من التكليف بحزم وعزم، ولكنكم لم تلبثوا أن نقضتم العهد بمجرد أن زال عنكم هذا الموقف.

ومعنى قوله تعالى خُذُوا مَا آتَاكُمْ بِقُرَّةٍ وَأَسْمَعُوا . أي قلنا لكم خذوا ما أمرناكم به من التوراة بجد واجتهاد واسمعوا ما تؤمرون - سماع - إاعة وتفهيم، ثم حكى سبحانه جوابهم الذي يدل على عنادهم فقال: قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا .

أي كانت حالهم في المخالفة مثل حال من قالوا سمعنا قولك وعصينا أمرك، وقال الرمخشري في الكشف:

(هنا قلت: كيف طابق قوله جوابهم؟ قلت: طابقه من حيث إنه قال لهم اسمعوا، وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة، فقالوا سمعنا ولكن لا سماع طاعة) (٢٢٢).

وقد اختلف المفسرون. هل صدر منهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقاً أو أنهم فعلوا فعلاً مقام القول فيكون مجازاً؟

قال الضحار الرازي: (الأكثر من المفسرين على أنهم قالوا هذا القول حقيقة)

وقال أبو مسلم: وحائر أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالمصيان فمهر عن ذلك بالقول ولم يقولوه، كقوله تعالى فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين . (فصلت: ١١) قال: والأول أولى لأن صرف الكلام عن ظهره بغير الدليل لا يجوز (٢٢٣).

وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعُجْلَ بِكُفْرِهِمْ . واختلط حب عبادة العجل بقلوبهم، تقليدًا لساداتهم من الفراعنة الذين كانوا يعبدونه ويقدمون له، ولم ينتفعوا بتحرير الله لهم من ذل الميودية والقتل، حيث شق النحر لهم وبجاهم.

ولهذا انتهزوا فرصة ذهاب موسى - عليه السلام - لتلقى ألواح التوراة فأرضوا حبهم لمعبودهم القديم، وعبدوا صنما على شكل العجل، صنمه لهم موسى السامري من حلهم (٢٣٤).

وفى تفسير ابن كثير: وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعُجْلَ بِكُفْرِهِمْ.

قال قتادة أشربوا حبه حتى خلص إلى قلوبهم، وروى أحمد عن أبي الدرداء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: « حبل الشيء يعمى ويصم » ورواه أبو داود (٢٣٥).

قُلْ بِنِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قل لهم يا محمد بنس الذي يأمركم به إيمانكم المعروف بالتوراة من الأعمال التي تقتضونها، كمعبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق، وقولكم : سمنًا وعصيًا . وإضافة الإيمان إليهم في قولهم إِيمَانُكُمْ . للإيدان بأنه ليس بإيمان حقيقة كما ينبئ عنه قوله تعالى: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فإنه قدح في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم من التوراة وإبطال لهذه الدعوى، وتقرير الإبطال: إِنْ كُنْتُمْ - فيما اقترعتموه من الشرك والمعاصي - مؤمنين بها، عاملين بما فيها كما ادعيت، فبنسما يأمركم به إيمانكم المزعوم بها. إذ إن الإيمان الصادق بها لا يأمركم بما اقترعتموه من الشرك والمعاصي، فليس فيها إباحة شيء من ذلك، وهذا برهان على عدم إيمانكم بها.

قال الطبري: قوله: إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . أي إِنْ كُنْتُمْ مصدقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم، إنما كذبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله وتأمّر بخلافه. فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إِنْ كَانَ يَأْمُرُهُمْ بِذَلِكَ، فبنس الأمر تأمر به، إنما ذلك نفى من الله تعالى عن التوراة أن تكون تأمر بشيء مما يكرهه الله من أفعالهم، وأن يكون التصديق بها يدل على شيء من مخالفة أمر الله، وإعلام منه - جل شأؤه - أن الذي يأمر بذلك أهواؤهم، والذي يحملهم عليه البني والمعدوان (٢٣٦).

وقد ذكر الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ألوانا من الإعجاز البياني والنفسى تطوى عليها الآيات السابقة في حجاج اليهود،

ففى تفسير الآية (٩١) من سورة البقرة: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ امْكُفُوا أَعْيُنَكُمْ عَنْ آلِهَتِكُمْ إِفَ تَعْلَمُونَ مَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا نَعْتَمُ . . .

قال الأستاذ دراز: هذه الآية قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص فيما يلي:

١ - مقالة ينصح بها الناصح لليهود: إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن.

٢ - إجابته لهذا الناصح بمقالة تتطوى على مقصدين.

٣ الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه، وهي حتام الآية ٩١. قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .

يقول الأستاذ دواز:

لقد استوى القرآن إلى الرد على المقصد الأصلي الذي تبجحوا بإعلانه، فأوسعهم تكذيباً وتشيداً، وبين أن داء الجحود فيهم داء قديم. قد أشربوه في قلوبهم. ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضاً مزمناً، وأن الذي أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المظغة التي لا سبيل إلى إنكارها، هي جهلهم بالله، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه وتمردهم على أوامره.

قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . تأمل كيف أن هذا انتقال كانت النفس قد استعدت له هي أحر المرحلة السابقة إذ يعمهم السامع من تكذيبهم لما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذبين كتابهم نعمة، وهل الذي يكذب من يصدقك يبقى مصدقاً لك؟

ثم انظر بعد أن سجل القرآن على بني إسرائيل أحش الفحش وهو وضعهم اليقر الذي هو مثل في البلادة موضع المعبود الأقدس، وبعد أن وصفت قسوة قلوبهم في تأييدهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة. بعد كل ذلك تراه لا يزيد على أن يقول في الأمر: إن هذا (ظلم) وفي الثانية (نفساً) صغمت، أدلك ما تقابل به هذه الشناعات؟ نعم إنهما كلمتان وأقيتان بمقدار الجريمة لو همتا على وجههما، ولكن أين حدة الألم وحرارة الانتدفاع في الانتقام.

بل أين الإقذاع والشمسي<sup>٢٣٧</sup> وأين الإسراف والفجور الذي تراه في كلام الناس، إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم.

لله ما أعف هذه الخصومة وما أعز هذا الجنب وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين، وتالله إن هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر<sup>(٢٣٧)</sup>.



## حرصهم على الحياة

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِثُنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَأْتَاهُمْ لَوِيعَةُ أَلْفِ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْزُقِهِ ۚ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُمْرَّ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

المعمرات:

خالصة : سائلة لكم مختصة بكم، لا يشارككم فيها أحد من الناس.

التمنى : هو الرغبة القوية في الشيء.

يممر : يطول عمره.

بمرزقحه : بميممه من العذاب.

البصير : العالم بكنه الشيء الخبير به.

المعنى الإجمالي:

قل يا محمد لأولئك اليهود الذين ادعوا أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودا: إن كانت الجنة مختصة بكم، وسائلة لكم دون غيركم وليس لأحد سواكم حق فيها، فليكن الموت محبباً إليكم ولتتمنوه حتى لا يبطئ عنكم هذا الميمم الذي تدعونه.

ولكنهم في الواقع لا يرغبون في الموت أبداً لما اقترفوه من ظلم لا يخفى أمره على الله، والله عليم بظلمهم ويكسبهم فيما يدعون.

بل إنك لتجدهم أحرص الناس جميعاً على حياتهم على أي شكل عزيزة أو ذليلة، وحرصهم أكثر من حرص المشركين الذين لا يؤمنون ببعث ولا جنة، ولذلك يود أحدهم لو يممر ألف سنة، ولن يبعد عنه تميمه مهما طال ما ينتظر من عذاب الله، والله عليم بأعمالهم محيط بما يخفون وما يملنون، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون.

التفسير:

٩٤ - قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . لقد

ادعى اليهود دعاوى كثيرة، ادعوا الإيمان بما أنزل عليهم، فبينت الآيات السابقة كذب ادعائهم، بمبادئهم المعل، واقتراضهم كبائر الإنم.

وادعوا: أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هودًا، فهي خالصة لهم دون غيرهم، فأبطل الله دعواهم بهذه الآية.

والمعنى: قل لهم يا محمد: إن كانت لكم جنة الآخرة عند الله، وفي حكمه وكتابه خالصة لكم، وخاصة بكم من دون الناس جميعًا كما زعمتم: إذ قلتم لن يدخلها إلا من كان هودًا، هتمنوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الحاصل لكم، والخاص بكم، إن كنتم صادقين في دعواكم، فإن النفس تستميل خيرها.

قال الإمام الرازي: ويرى هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالمقاييس إلى نعم الآخرة، ثم إن نعم الدنيا على قلة كانت منفصلة عليهم بسبب ظهور محمد - صلى الله عليه وسلم - ومنارعتهم مهم، بالجدال والقتال، ومن كان هي النعم القليلة المنفصلة، ثم يتيقن أنه بعد الموت لا بد أن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة، فإنه لا بد أن يكون راضيًا في الموت، لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة، ولا سبيل إليها إلا الموت، وحيث كان الموت يتوقف عليه المطلوب، وجب أن يكون هذا الإنسان راضيًا بالموت متمنيًا له، فثبت أن الدار الآخرة، لو كانت خالصة لهم، لوجب أن يتمنوا الموت.

ثم إن الله تعالى أحبر أنهم ما تمتوا، بل لن يتمنوا أبدًا، وحيث يلزم قطعًا بطلان ادعائهم هي قولهم إن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس (٢٣٨).

٩٥ - ولِي يَمُوتُوا أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. أي لا يتمنى اليهود الموت أبدًا بسبب ما قدمت أيديهم من آثام، والله عز وجل لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتدائهم بل هو سيسجلها عليهم ويجازيهم عليها العزاء الذي يستحقونه.

واختار ابن كثير في تفسيره أن المراد من الآيتين الدعاء بالموت على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة.

روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما: أن ذلك يكون عن طريقة المباهلة بأن يحضروا مع المؤمنين في صعيد واحد ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منها.

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «لو تمتوا الموت لشرق أحدكم بريقه» (٢٣٩) وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس. وروى ابن جرير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لو أن اليهود تمتوا الموت لما تروا لمقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يبأهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا ومالا» رواه الإمام أحمد (٢٤٠).

وعلق ابن كثير على الكلام السابق بقوله:

وهذا الذي فسره به ابن عباس الآية هو المتعين، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب: منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، نقله ابن جرير عن قتادة وأبي العالية والربيع بن أنس، نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَرْثَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَمُتُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) ولا يتمنونه أبدًا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين (٥) قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَعْرِفُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلَكٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَرَوُنَّ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَالتَّشَاهُدِ فَبَيْنَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦). (الجمعة ٦-٨)

فهم عليهم لعائن الله - لما رعموا أنهم أنشأ الله أحباؤه. وقالوا لى يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى. دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم طغوا. لأنهم لو كانوا جادمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخروا علم كذبهم، وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المظاهرة وعوتهم وعيادهم إلى المباهلة، فقال تعالى لمن حاكك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا ونفسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . (آل عمران : ٦١)

فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتهم هذا النسي لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جمعوا إلى السلم وبذل الحرية عن يد وهم صاغرون، فصرخوا عليهم وبعت معهم أيا عبيدة بن الجراح أمينا، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قوله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين قل من كان فى الصلالة فليند له الرخص مدأ. أى من كان فى الصلالة منا أو منكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه (٣٣١).

وقد انتصر ابن كثير لراى ابن عباس وبين أنه هو المتعين فى تفسير الآية. وهاجم راى جمهور المفسرين الذى قالوا معنى. إن كنتم صادقين . أى فى دعوكم قتمنوا الموت الآن، لم يتعرض هؤلاء للمباهلة.

وقد انتصر بعض المفسرين المحدثين لراى الجمهور ورححه لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ، الذى نطقت به الآية وأقرب أيضا إلى معناها (٣٣٢).

وأرى أن كلا التفسيرين محتملان فى فهم الآية ولا حاجة بنا إلى إبطال أحدهما ولا يمنع أن يفهم منها المعنى الآخر، ومن أسرار الإعجاز القرآنى، أن الآية تصيد معنى وتشير إلى معنى وتستتبع معنى.

وهى فى ذاتها قطعة من الأدب الرفيع على السبك المحكم أو الرد المفعم أو الحجة البالغة

ولعل من المعانى التى تشير إليها الآية أن المؤمن لا يهاب الموت ولا يرهب الردى ثقة منه بأن أجله محدود، وورقه مقسوم، والموت رحلة إلى الآخرة، يشاهد فيها المؤمن ما أعد للأبرار، ويقدم على العريز العمار، مطمئنا راضيا مرضيا.

وقد روى عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم تمنى الموت عند القتال، ميمرين بالسنتهم عما يجول فى صدورهم، من صدق الإيمان بما أعد للمؤمنين من الدار الآخرة، فقد جاء فى الأخبار أن عبد الله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم:

طبيبة وبارد شرابها

يا حباذا الجنة واقترابها

وأن عمار بن ياسر قال فى حرب صفين:

محمدًا وصديه

غدًا تلقى الأحبيه

ويقول الشاعر:

حريصا عليها مستهتما بها صبا

أرى كلنا يهوى الحياة بسميه

وحب الشجاع النفس أورده الحريا

فحب الحبان النفس أورده التقى

٩٦ وتَجِدْنَهُمْ أَحْرَسَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَحْدَثُ لَهُمْ نُورًا يَمْشُرُ الْآلِفَ سَنَةً . إِيَّاهُمْ يَحْبِبُونَ الْإِخْلَادَ إِلَى الْأَرْضِ . وَيَعْمَلُونَ كُلُّ مَا يُوصلُهُمْ إِلَى الْبَقَاءِ فِيهَا . فَلَا ثِقَةَ لَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ فِيمَا يَزْعُمُونَ ، وَتِلْكَ سِرَّتُهُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ كَانَ فِي عَصْرِ التَّنْزِيلِ .

وهكذا نجد القرآن الكريم يرسل من الحجاج ، فيشاعبون ويماندون ، اعتراضا بشعبهم ، واعتراضا بكتابهم .

ومن الذين أَشْرَكُوا . إِيَّاهُمْ أَشَدَّ حِرْصًا عَلَى الْحَيَاةِ مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ ، وَلَا بِالْهُدَى الْآخِرِ ، وَفِي هَذَا تَوْبِيخٍ وَإِيلَامٍ عَظِيمٍ لَهُمْ ، إِذِ الْمُشْرِكُونَ لَا يُؤْمِنُونَ بِبَيْعَتِهِ ، وَلَا يَمْشُرُونَ إِلَّا هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَحِرْصُهُمْ عَلَيْهَا لَيْسَ بِالْغَرِيبِ ، أَمَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِكِتَابٍ وَيُقَرُّ بِالْجَزَاءِ فَمَنْ حَقُّهُ إِلَّا يَكُونَ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَيْهَا .

وقوله : وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، معطوف على ما قبله بحسب المعنى ، كأنه قيل : أحرص من الناس ومن الذين أشركوا ، فقوله : أَحْرَسَ النَّاسُ فِيهِ كَلِمَةً (مَنْ) مقدرة بمد أحرص .

قال صاحب الكشاف : وفيه توبيخ عظيم ، لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بماقية ، ولا يمرهون إلا الحياة الدنيا ، فحِرْصُهُمْ عَلَيْهَا لَا يَمْتَدُّ لِأَنَّهُمْ يَحْتَمِلُونَهَا ، فَإِذَا رَادَّ عَلَيْهَا فِي الْحِرْصِ مِنْ لَهُ كِتَابٌ وَهُوَ مَقَرُّ الْجَزَاءِ ، كَانَ حَقِيقًا بِأَعْظَمِ التَّوْبِيخِ ، فَإِنْ قُلْتَ لِمَ رَادَّ حِرْصَهُمْ عَلَى حِرْصِ الْمُشْرِكِينَ ؟

قلت : إنهم علموا أنهم صانثرون إلى النار لا محالة . والمُشْرِكُونَ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ ، وَقِيلَ : أَرَادَ بِالَّذِينَ أَشْرَكُوا الْجَوْسَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلْمُؤَكِّمِ . عَشْرَ آلِفِ يَرُوزَ ، وَالْفِ مَهْرَجَانٌ (٢٢٢) .

يَوْمَ أَحْدَثُ لَهُمْ نُورًا يَمْشُرُ الْآلِفَ سَنَةً . إِيَّاهُمْ مِنْ شِدَّةِ غُلُوبِهِمْ فِي الْحِرْصِ عَلَى الْحَيَاةِ ، أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ يَتَعَنَّى أَنْ يَمِيشَ الْعَيْنَيْنِ الْكَثِيرَةِ ، وَتَوَجَّاهُ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي يَبْلُغُهُ الْإِنْسَانُ فِي الْعَادَةِ ، فَكَلِمَةُ (آلِفُ سَنَةً) كِتَابَةٌ عَنِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي يَوْمَ أَنْ يَحْيَاهَا ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ خُصُوصَ الْعَدَدِ ، لِأَنَّ الْعَرَبَ تَذْكُرُ الْأَلْفَ وَتُرِيدُ الْكَثْرَةَ

وَمَا هُوَ بِمُرْخَرَجٍ مِنَ الْعَذَابِ أَوْ يُعْمَرُ . وَمَا ذَلِكَ بِالتَّعْمِيرِ لَوْ تَمَّ ، بِنَاقِهِ وَلَا مِمْدِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ الْمَحْتَمِ ، لِأَنَّهُ لَا بَدَّ مِنَ الْمَوْتِ وَالْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ ، لِيَجَازِيَ عَلَى مَا قَدَّمَ فِي دُنْيَاهُ .

وَاللَّهُ بِصِرِّهِمْ بِمَا يَفْعَلُونَ . إِيَّاهُ الْعَالَمُ بِأَعْمَالِهِمْ ، مُحِيطٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ، وَسَيَجَارِيهِمْ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ بِمَا يَسْتَحِقُّونَ .

ومن هذا المرض للأيات الكريمة ترى أنها قد ردت على اليهود زعمهم الباطل بأن الجنة حالصة لهم ، فأبطلت حجتهم وكشفت مزاعمهم ، وأخرست المستهم ، وبيّنت أن الجنة لمن أسلم وجهه لله وهو محسن ، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس ، ولذلك حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت ، بسبب ما أرتكبوا من سيئات وما اقترفوا من آثام (٢٢٣) .

## عداوة جبريل

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلَّمَآ عَنْهُدُوعَهُدَا تَبَذَّهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

## المفردات:

العدو : صد الصديق، يطلق على الواحد والمتى والجمع المدكر والمؤنث.

## جبريل

: أمين الوحي بين الله تعالى ورسوله، وهو روح القدس.

## مصدقاً لما بين يديه

: أى مؤيداً ما تقدمه من الكتب السماوية التى نزلت على من سبق نبياً من الرسل.

## آيات

: المراد بها آيات القرآن.

## بيئات

: واضحة الدلالة على معانيها.

## الفاسيقون

: الخارجون عن الحق إلى الباطل والفساد.

## بذره

: طرحه وإلقاء، من التبد، وهو إلقاء الشيء وطرحه لعدم الاعتدال به.

## المعنى الإجمالى:

ذكر الله فى آيات سابقة معاذير اليهود اعتدروا بها عن عدم الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم كقولهم انهم مؤمنون بكتاب من ربهم وقولهم انهم ناجون حتماً فى الآخرة.

وهى هذه الآيات ذكر تعلقه اخرى هى اعجب من كل ما تقدم فندها كما قند ما قبلها، تلك هى قولهم ان جبريل الذى ينزل على محمد الوحي عدوهم فلا يؤمنون بما يحى به ممة.

قد بين القرآن ان جبريل لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه إنما مأمور الله مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية، مصدقاً لكتابهم نفسه، وليكون هداية وبشارة للمؤمنين.

هم كان عدوا لجبريل أو ميكائيل أو لآى ملك أو رسول من ملائكة الله ورسله الذين لا يعملون ولا يلعبون إلا ما يأمرهم به الله، فانه يكون عدوا لله وكاهراً به. والله عدو للكافرين. وما ينزل جبريل على النبى إلا بآيات بيئات لا يسع طالب الحق إلا الإيمان بها، وما يكفر بمثلها إلا المعاندون الخارجون من سنة العطرة . وكما

تذبذبوا في العقيدة والإيمان تذبذبوا كذلك فيما يرمونه من عهود. فكانوا كلما عاهدوا المسلمين وغيرهم عهداً بهذه هريق منهم لأن معظمهم لا يؤمن بحرمة عهد ولا مقداسة ميثاق.

التفسير:

٩٧ - قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ.

قال الإمام ابن جرير الطبري: (أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً، على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وميكائيل ولي لهم) (٣٢٤).

ومن قبائح اليهود قولهم في جبريل - عليه السلام - هو عدونا، وأرادوا من هذا القول: أنهم لا يؤمنون بوحي يحيى به عدوهم فهم لا يؤمنون بالنبي صلى الله عليه وسلم من أجل أن جبريل هو الذي ينزل عليه بالوحي.

فهم يثبتون أن جبريل ملك مرسل من عند الله ومع ذلك يفضونه وهذا أحط درجات الانحطاط في العقل والعقيدة.

قال ابن كثير في معنى الآية. أي من عادى جبريل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك، فهو رسول من رسل الله، ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل كما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل.

وكذلك من عادى جبريل فإنه عدو لله، لأن جبريل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه وإنما ينزل بأمر ربه (٣٢٦)، كما قال: وَمَا يَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا يُوْثِقُ أَيْدِيَهُمَا وَمَا يَرْسُلُ وَمَا كَانَ رَبُّكَ سَبِيًّا. (مريم ٦٤)

وقال تعالى: وَإِنَّهُ لَجِبْرِيلُ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. (الشعراء ١٩٢-١٩٤).

وقد نزل القرآن على قلب النبي الأمين مصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية وهدى لقلوب المؤمنين وبشارة لهم بالجنة.

وهو ورد في البحار وفي مسند الإمام أحمد وفي مسند الترمذي والتسامي روايات متعددة تفيد أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ينزل عليه بالوحي؟ فقال: جبريل، فقالوا ذلك عدونا، عاداتنا مرارا (٣٢٧).

وقيل: دخل عمر رضي الله تعالى عنه مدارس اليهود يوماً فسألهم عن جبريل فقالوا: ذاك عدونا بطلع محمداً على أمورنا وأنه صاحب كل خسف وعباد وميكائيل صاحب الخصب والسلام. فقال: وما مرلتكما من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة فقال: لئن كانا كما تقولون فليس بدموين ولأنتم أكثر من العمير، ومن كان عدواً لأحدهما فهو عدواً لله ثم رجع عمر وتوجه نحو النبي صلى الله عليه وسلم ليحدثه حديثهم فوجد أنه قد أنزلت عليه هذه الآية قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ.

الآيات (٣٢٨)

٩٨ - من كان عدواً لله وملائكته ورُسُلِهِ وجبريل وميكائيل فإنَّ اللهَ عدُوُّ الكافرين . أى من كان عدواً لله بمخالفته أمره عتاداً، والخروج عن طاعته مكابرة، وعدواً للملائكة برفضه الحق الذى جاءوا به من عنده تعالى لرسله، وعدواً لرسله بتكذيبهم وعدواً لجبريل وميكائيل خاصة، من كان عدواً لهؤلاء، وعداوتهم كصر، عاداه الله فإن الله عدو للكافرين، ومن عاداه باء العذاب المهين.

قال ابن كثير:

(يقول تعالى: من عاداى وملائكتى ورسلى - (ورسله) ليشمل رسله من الملائكة والبشر، كما قال تعالى الله يضطلي من الملائكة رسلًا ومن الناس . وجبريل وميكائيل - وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهما دخلا فى الملائكة فى عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر لأن السياق فى الانتصار لجبريل وهو السفير بين الله وأبيائه وقرن معه ميكائيل فى اللفظ، لأن اليهود زعموا أن جبريل عدوهم، وميكائيل وليهم فأعلمهم أنه من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً، لأنه أيضاً ينزل على الأنبياء بعض الأحيان كما قرن برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ابتداء الأمر، ولكن جبريل أكثر وهو وظيفته، وميكائيل موكل بالنبات والقطر، هذا بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسماعيل موكل بالصور للتفخ بالبعث يوم القيامة) (٢٣٩) ولهدا جاء فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون - اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) (٢٤٠). وميكائيل هو ميكائيل، وجبريل هو جبرائيل.

قال البياصاوى (وفى جبريل ثمان لغات قرئ بهن أربع فى المشهور وأربع فى الشواذ) (٢٤١).

عن ابن عباس قال: إنما كان قوله جبرائيل كقوله عبد الله وعبد الرحمن، قيل جبر - عبد، إيل - الله.

٩٩ - ولقد أنزلنا إليك آياتٍ مبيناتٍ وما يكفرُ بها إلا الفاسقون .

لقد أنزلنا إليك القرآن حججاً على نبوتك وعلامات واضعات عليها .

قال ابن كثير:

(وتلك الآيات هى ما حكاه كتاب الله من حفايا علوم اليهود ومكتوبات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من نبي إسرائيل، والنبأ عما تصمته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلمائهم وما حرقه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة فأطلع الله عليها نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف نفسه ولم يدعه إلى هلاكها الحسد والبغى، إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات) (٢٤٢).

قال تعالى إن هذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل أكثرَ الذي هم فيه يختلفون .

وما يكفرُ بها إلا الفاسقون . أى ولا يكفر بهذه الآيات إلا الفاسقون أى المتوردون فى الكفر الخارجون عن

حدود الإيمان.

قال الحسن: إذا استعمل الصدق في نوع من المعاصي، وقع على أعظم أفراد من كفر أو غيره، ومن أشد هؤلاء الفاسقين فسقاً اليهود إذ إنهم كفروا بالآيات البينات مع تآكدهم من صدق من جاء بها عادداً لمن ظهر الحق على يديه وحسداً له، فإنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

١٠٠ - أو كلّموا عاهدوا عهداً نبهه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون . والاستمهام هي أو كلّموا . للتذكير والتوبيخ والتعجب من شأنهم . والواو للمطلق على مقدر يستدعيه المقام والتقدير: اكفروا بهذه الآيات وكلّموا عاهدوا عهداً نبهه فريق منهم . كلّموا . لإيهاد تكرارهم لنبيذ اليهود .

قال الزمخشري: واليهود موسومون بالمدر ويقص العهد وكما أخذ الله الميثاق منهم ومن آباءهم فأنقصوا . وكما عاهدوا رسول الله فلم يفوا .

قال تعالى الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون . (الأنفال ٥٦)

★ ★ ★

## السحر

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيمَنَ ۖ وَمَا كَفَرُ سُلَيمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِن أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۖ وَمَا هُم بِضَآئِرٍ بِهِ ۚ مِن أَحَدٍ إِلَّا يَآذِنُ اللَّهُ وَيَعْلَمُونَ مَا يَبْضُرُهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ وَلَئِنَّ سَآئِرَ مَا يَشْرُونَ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا ۖ وَأَتَّقُوا لَمَثُوبَةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْكَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

المفردات:

: تخبر وتحدث أو تقول .

تتلوا



على ملك سليمان : على عهد ملكه وفي زمانه.

**السحر** : إخراج الباطل في صورة الحق، وهو في الأصل مصدر سحر يسحر بفتح الحاء فيهما، والسحر لغة كل ما لطف مأخذه وخفى سببه، وسحره: خدعه، وجاء في كلامهم: عين ساحرة وعيون مواجر وفي الحديث « إن من البيان لمسحر » (٢١٢).

والمراد هنا : امر غريب يشبه الخارق المعجز وليس بالخارق إذ يجري فيه التعلم، كالذي حصل من سحرة هرعون. حيث أظهروا لموسى جبالهم وعصيانهم أنها تسمى.

**ببابل** : بلدة قديمة، كانت بالعراق ينسب إليها السحر.

**هاروت وماروت** : اسمان للملكين اللذين أنزل عليهما علم السحر.

**فتنة** : ابتلاء واختبار.

**اشتراه** : استبدل ما تملوا الشياطين بكتاب الله.

**خلاق** : نصيب في الخير.

**لثوية** : لأجر وثواب.

#### المعنى الإجمالي:

بيَّن الله في هذه الآيات علة ما يصدر عن اليهود من جحود وعناد، ومعاداة للنبي صلى الله عليه وسلم.

فقد جاءهم محمد برسالة سماوية تصدق ما معهم من التوراة وتطابق أوصاف ما في أسفارهم.

ولكن فريقاً منهم نبذ ما ذكر في التوراة عن رسالة محمد كأنه لم يرد فيها ولم يعلموا شيئاً عنه.

ولقد صدقوا ما تنقله شياطينهم وفجرتهم على ملك سليمان، إذ رعبوا أن سليمان لم يكن نبياً ولا رسولا ينزل عليه الوحي من الله بل كان مجرد ساحر يستمد العون من سحره، وأن سحره هذا هو الذي وطد له الملك وجعله يسيطر على الجن والطير والرياح فسيبوا ذلك الكفر لسليمان وما كفر سليمان ولكن هؤلاء الشياطين الفجرة هم الذين كفروا، إذ تقولوا عليه هذه الأقاويل، وأخذوا يعلمون الناس السحر من عندهم ومن آثار ما أنزل ببابل على الملكين هاروت وماروت مع أن هذين الملكين ما كانا يعلمان أحداً حتى يقولوا له إنما نعلمك ما يؤدي إلى الفتنة والكفر فاعرفه واحذره، وتوق العمل به، ولكن الناس لم يتصنعوا بهذه النصيحة، فاستخدموا مما تعلموه منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه. نعم كفر هؤلاء الشياطين الفجرة إذ تقولوا هذه الأقاويل من أقاويلهم وأساطيرهم دزيمة لتعليم اليهود السحر، وما هم بضارين سحرهم هذا من أحد، ولكن الله هو الذي يأذن بالضرر إن شاء، وإن ما يؤخذ عنهم من سحر ليضر من تعلمه في ديه ودنياء ولا يفيد شيئاً، وهم أنفسهم يعلمون حق العلم أن من اتجه هذا الاتجاه لن يكون له حظ في نعيم الآخرة، وليس ما اختاروه لأنفسهم لو كانت لهم بقية من علم.

ولو أنهم آمنوا بالإيمان الحق وخافوا مقام ربهم لأثابهم الله ثواباً حسناً، ولكن ذلك الثواب خيراً لهم من كل ما يتوهمون من المنافع لو كانوا يميزون النافع من الضار.

التفسير:

١٠١ - وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَوَاهُمْ ظُهُورَهُمْ كَانَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم، ووصفه بأنه جاءهم من عند الله فيه تعظيم له، فإن عظمة المرسل تقتضى عظمة رسوله، وفيه مع ذلك مبالغة في استتكار كفرهم.

أي ولما جاءهم رسول عظيم من عند الله مصدق لما معهم من التوراة من حيث إنه جاء على الوصف الذي وصفته التوراة لخاتم الرسل، كما أن كتابه الذي جاء به موافق لما فيها من قواعد التوحيد وأصول الدين والأخلاق وأخبار الأمم.

نبذ فريق من اليهود كتاب الله وهو التوراة التي بشرت بالنبي وأعملوها إهمالا تاما كأنهم لا يعلمون أنها من عند الله أو أن محمداً رسول الله.

وواقع أنهم يعلمون ذلك علما يقينا وتكهنهم تبنوه مكابرة وعناداً وجرياً على سنتهم في نبذ اليهود، فإنه قد أخذ عليهم في التوراة أنه إذا جاءهم هذا الرسول المتموت، يؤمنون به وينصرونه، فنقضوا هذا العهد بكفرهم به.

وقوله تعالى: «وَرَأَى ظُهُورَهُمْ» . كناية عن إعراضهم الشديد عنه وتوليهم عن تعاليمه.

### جاء في تفسير المنار:

ليس المراد ينبذ الكتاب وراء ظهورهم، أنهم طرحوه برمته، وتركوا التصديق به في جملته وتخصيله، وإنما المراد أنهم طرحوا أجزاء منه وهو ما يبشر بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وبيّن صفاته، ويأمرهم بالإيمان به واتباعه، فهو تشبيه تركهم إياه وإنكاره، بمن يلقى الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتذكره وترك الجزء منه تركه كله، لأن ترك البعض يذهب بعمرة الوحي من النفس ويجري على ترك الباقي<sup>(٢١٤)</sup>.

### هل السحر حقيقة أم خداع؟

السحر نوع من الابتلاء والاختبار، أو نوع من البلاء الذي يتعرض له الناس في هذه الدنيا.

«والسحر ثابت بالحس والمشاهدة ونص القرآن وتواترت به الآثار عن الصحابة والسلف وأهل التفسير والحديث والفهاء، والسحر يؤثر مرضاً وقهلاً وعقداً وجناً ونفساً ونزيفاً وغير ذلك من الآثار الموجودة والتي تعرفها عامة الناس وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به»<sup>(٢١٥)</sup>.

### رأى الإمام محمد عبده في السحر:

يذهب الأستاذ الإمام إلى أن السحر تحييل للأعين وخداع للناظرين، ويستطيع أن نوجز آراءه في السحر

هيماً يلي:

١ - السحر ليس جزءاً من العقيدة الدينية بل هو من الأمور المادية والعلوم الإنسانية، متروك إلى بحوث الناس وتقدم معلوماتهم عنه وتوضيحيهم لحقائقه.

٢ - جاء ذكر السحر في القرآن في مواضع متعددة ومجموعها يدل على أن السحر أحد شيئين:

(١) إما حيلة وشعوذة.

(ب) وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الآكثرون فيسمون الممثل بها سحرًا لخداع سسه ولطف مأخذه، ويمكن أن يمد منه تأثير نفس في نفس أخرى.

٣ - السحر تخيل وخداع للأعين وليس حقيقة، ولذلك قال سبحانه : **يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أُنْهَآ تَسْمَى** مسخرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصورة الحيات والثعابين وتحيل أنها تسمى.

٤ - اعتاد من يتخذ السحر وسيلة أن يستعين بأسماء الجان والشياطين فيعتقد الدهماء أنهم يستطيعون له ويلقى ذلك في روعهم ، وهذا الوهم يصنع صنع السحر ولا يستطيع الساحر أن يؤثر إلا في شخص عريمته هباء ونفسه هواء وعنده قابلية لتأثير غيره فيه، فينتهز ذلك الساحر ليؤهمه بما يشاء<sup>(٣١٦)</sup>.

### مذهب الأشعرية:

مذهب الأشعرية أن للسحر تأثيرًا حقيقيًا وليس كله حيلًا ومنه أنه أثر في جسم النبي صلى الله عليه وسلم وخياله دون عقله وروحه فكان يخلل إليه أنه أتى نساءه ولم يكن آتاهن ولم يتجاوز هذا الحد<sup>(٣١٧)</sup>.

### تأمل في الموضوع:

والتأمل في موضوع السحر يرى أن بعضه خداع وخفة حركة وبراعة وحيلة وذكاء وتفهم.

وبعضه حقيقة نسلم بها كتدفع من البلاء الذي يصيب الناس في هذه الدنيا. قال تعالى : **وَسَلِّمْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَنَسَاءً وَإِلَيْهَا تُرْجَعُونَ**.

وهي التراث الإسلامي والهدى النبوي ما يفيد أن هناك عدة أشياء تحمي الإنسان من السحر والحسد والشياطين منها ما يأتي:

١ - قراءة آية الكرسي.

٢ - قراءة: **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** . والمؤذنين.

٣ - قراءة حواتيم سورة البقرة من قوله تعالى: **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ..**

٤ - إخراج صدقة.

٥ - قراءة (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير) عشر مرات بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب.

٦ - قراءة (باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله) وهي الأثر. من أعجبه شيء من أهل أو مال أو ولد فقال باسم الله لا قوة إلا بالله لم ير فيه مكروها.

٧ - الاعتقاد الجازم و اليقين الصادق بأن الله هو النافع وهو الصار وهو المانع وهو الكافي وإن أحدًا لا ينعم ولا يضر إلا بإذن الله وهذا المصدر الأخير هو أهم شيء في الموضوع وهو السحرة العاتية التي تتكسر عليها آثار كل حسد أو سحر أو شر.

## آية السحر

١٠٢ - وَاتَّبِعُوا مَا نَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ

هذه الآية مقطوعة على الآية السابقة. التي أهدت أن فريقاً من اليهود نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه ثم عطف هنا على هذه الجريمة - وهي نبذهم لكتاب الله - جريمة أخرى هي اتباعهم الشياطين بمراوغة السحر بدل كتاب الله.

والمعنى أن اليهود لما جاءهم الرسول بالقرآن نبذوه أو نبذوا التوراة التي يشرت به، واشتغلوا بالسحر. والمراد مما تتلو الشياطين: أي المتصدرون من الإنس والجن. وقد كانت الشياطين في عهد سليمان تلقى كهان اليهود وتتلو عليهم قواعد السحر وتخبرهم كذباً. أن ملك سليمان وسلطانه على الإنس والجن، والطير والريح، لم يرق إلا على تلك القواعد، فكانوا يدونونها عن الجن في كتب لديهم: توارثها الخلف عن السلف حتى وصلت إلى اليهود في المدينة فكانوا يشتغلون بها قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، ولما بعث رقصوا كتاب الله وفصلوا عليه الاستمرار في السحر.

وقد زعموا أن سليمان جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كبرسيه، ثم استخرجها، وهذا من مقترحات أهل الأهواء نصبوها إليه كذباً وبهتاناً.

قال الزمخشري وقوله تعالى: على مُلْكِ سُلَيْمَانَ. أي على عهد ملكه وفي زمانه، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمنون إلى ما سمعوا أكاذيب يلقونها إلى الكهنة، وقد دونوها في كتاب يقرئونها ويعلمونها للناس، وهذا ذلك في زمان سليمان عليه السلام حتى قالوا: إن الجن تعلم العيب، وكانوا يقولون: ما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه يسحر الإنس والجن والريح التي تجري بامرهم (٢١٨).

وما كفر سُلَيْمَانُ. تنزيه لسليمان عن الردة والشرك وتجربة له من عمل السحر الذي كان يتعامله أولئك الشياطين وينسبونه إليه زوراً وبهتاناً (٢١٩).

وقد كان اليهود يمتقدون كفر سليمان، وأنه ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام وبسبب لها المعابد، وكانوا عندما يذكر النبي صلى الله عليه وسلم سليمان بين الأنبياء يقولون: انظروا إلى محمد يحلظ الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء وإنما كان ساحراً يركب الريح.

ولكن الشياطين كفروا. أي ولكن الشياطين من الإنس والجن الذين نسبوا إلى سليمان ما انتحلوه من السحر ودونوه وعلموه الناس هم الذين كفروا.

يُعلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ . أَي أَنَّ الشَّيَاطِينَ يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ إِغْوَاءً وَإِضْلَالًا . وَالْجَمْلَةُ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ ، وَالْمُرَادُ مِنَ السَّحْرِ مَا يَسْتَعَانُ فِي تَحْصِيلِهِ بِالتَّقَرُّبِ إِلَى الشَّيْطَانِ مِمَّا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ الْإِنْسَانُ وَذَلِكَ لَا يَسْتَتِبُ إِلَّا مَنْ يَنَاسِيهِ فِي الشَّرَارَةِ وَخَبَثِ النَّفْسِ فَإِنَّ التَّنَاسُبَ شَرْطٌ فِي التَّضَامُنِ وَالتَّعَاوُنِ .

وبهذا تميز الساحر عن النبي والولي .

وأما ما يتمجج فيه كما يفعله أصحاب الحيل بعمونة الآلات أو الأدوية ، أو يصنعه صاحب خفة اليد فقير مذموم وتسميته سحرًا من التجوز أو لما فيه من الدقة لأنه في الأصل لما خفى سببه (٢٥٠) .

وما أنزل على الملوكين بابل هاروت وماروت . أَي اتبع اليهود ما كانت تقرؤه الشياطين على الكهنة من أبواب السحر من عهد سليمان .

واتبعوا أيضًا ما أنزل على الملوكين هاروت وماروت ببابل .

(وهاروت وماروت ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزًا بينه وبين المعجزة . وما روى أنهما مثلاً بشريين وركب فيهما الشهوة فتمعرضا لامرأة يقال لها زهرة فحملتهما على المأصى والشرك ثم صعدتا إلى السماء بما تعلمت منهما فحكى عن اليهود ولطه من رموز الأوائل وحله لا يخفى على ذوي البصائر . وقيل رحلان سميًا ملكين باعتبار صلاحهما) (٢٥١) .

والمقصود من إنزال السحر على هذين الرجلين المشبهين للملائكة ، وإلقاءه في قلوبهما وتعليمهما إياه .

فكانا يعلمان الناس السحر لكي يتخلصوا بتعلمه من سيطرة الساحرة من الصابئة ويتقوا شرورهم وكانا يمزجان التعليم بالتعذير : وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ . أَي مَا يَعْلَمَانِ أَحَدًا حَتَّى يَنْصَحَاهُ وَيَقُولَا لَهُ إِنَّمَا نَحْنُ ابْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ هُمَنْ تَعْلَمُ مَا وَعَمِلَ بِهِ كَفَرٌ وَمَنْ تَعْلَمُ وَتَوْفَى عَمَلَهُ ثَبَتَ عَلَى الْإِيمَانِ فَلَا تَكْفُرْ ، بِاعْتِقَادِ جَوَازِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ .

أَوْ يَقُولَا : إِنَّمَا نَحْنُ مَقْتُونَانِ فَلَا تَكُنْ مِثْلَنَا (٢٥٢) .

وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية :

أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَ بِهِ النَّاسَ فَأَخَذَ عَلَيْهِمَا الْمِثْقَالَ أَوْ لَا يَعْلَمَانِ أَحَدًا حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ .

وأما (الفتنة) فهي : المحصة والاختبار (٢٥٣) .

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ . أَي فَيَتَعَلَّمُ النَّاسُ مِنْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ مِنْ عِلْمِ السَّحْرِ مَا يَتَصَرَّفُونَ فِيهِ مِنَ الْأَفَاعِيلِ الْمَذْمُومَةِ ، مَا أَنَّهُمْ لَيَقْرَهُونَ بِهِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْخِلَافَةِ وَالْإِثْلَافِ . وَخُصَّ الْإِفْسَادُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ بِالتَّذَكُّرِ لِأَنَّهُ مِنَ الصُّورِ الَّتِي تَطْهَرُ فِيهَا مَفْسَدَةٌ لِلْسَّحْرِ بِأَشَدِّ مَا تَكُونُ ، فَهَذَا أَثَرُ بَرَارِهَا . يَعْلَمُ النَّاسُ مِنْهَا مَدَى مَا يَصِلُ إِلَيْهِ السَّحْرُ مِنَ الْإِضْرَارِ بِالْمَجْتَمَعِ ، فَإِنَّ إِهْسَادَ الْأُسْرَةِ إِهْسَادٌ لِلْمَجْتَمَعِ ، شَهْدٌ فِيهِ مِنْ تَشْرِيدِ الْأَوْلَادِ الَّذِينَ هُمْ أَسَاسُهُ .

روى مسلم عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده هتة، يحنّ أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئا، ويحنّ أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله، قال فيقره ويدينه ويلتزمه ويقول نعم أنت» (٧٥٤)

وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر، ما يخيّل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو بغض أو شك أو اتهام أو نحو ذلك.

والمرء عبارة عن الرجل وثانيته امرأة ويشي كل منهما ولا يجمعان (٧٥٥).

وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله. أي ما يضر السحرة بهذا أحدا كائنا من كان إلا يعلم الله وإرادته، فهم إذن لا يستعملون أن يحدثوا بسحرتهم ضررا دون إرادة الله.

قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله، قال محمد بن إسحاق: إلا بتحلية الله بيبه وبين ما أراد.

وَيَعْلَمُونَ مَا بُعِثُوا بِهِ وَلَا يَفْقَهُونَ. من قيل أنه سبب في إصرار الناس، هذا مما يعاقب الله عليه من عرف بإيذاء الناس أبصروا واجتنبوه ولا نفع لهم فيه، فإننا نرى منتحلي هذه المهنة من أهقر الناس وأحققرهم، وذلك حاتم في الدنيا، فما بالك بهم في الآخرة يوم يحزى كل عامل بما عمل.

ولقد علموا لمن اشترا ما له في الآخرة من خلاق. ولقد علم هؤلاء اليهود الذين نهبوا كتاب الله واتبعوا السحر أن من استبدل السحر بكتاب الله وآثره على شرعه سبحانه، ليس له أي حظ من الجنة ولا أي نصيب من الخير يوم القيامة؛ لأنه لم يكن له إيمان ولا عمل صالح يكافأ عليه. الضمير في. علموا. يعود إلى أولئك اليهود الذين تركوا كتاب الله واستبدلوا به السحر.

وهي تفيد أن اختياريهم بسحرهم نشأ عن جهلهم بضرره، إنما هم الذين اختاروه ومالوا إليه متمسكين وعالمين بعاقبته السيئة.

وليس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون. شروا: أي باعوا، وهي من الأضداد فتأتي بمعنى البيع والشراء.

بيع الأنفس هنا معناه بيع نصيبها من الجنة ونعيمها.

المعنى: وتبش هذا الذي باعوا به حظ أنفسهم من الخير، هو تعلم السحر والعمل به، لو كان عندهم علم وعقل لأدركوا أن هذا السحر ضار مفسد للنفس والعقل والناس، ولا تمتصوا عن تعلمه والعمل به. قال ابن كثير: تبش البديل ما استبدلوا به من السحر عوضا عن الإيمان ومتابعة الرسل لو كان فيهم علم بما وعظوا.

١٠٣ - ولو أنهم آمنوا واتقوا لمتوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون. أي لو أن أولئك اليهود النابذين لكتاب الله المتعنين للأوهام والأباطيل، آمنوا بجمحمد (صلى الله عليه وسلم) أو بالتوراة إيمانا حقا، واتقوا الله، فاجتنبوا ما يؤلمهم ومنه السحر، كانت لهم متوبة من عند الله، هي خير لهم من السحر، ولو كانوا من أولى العلم الذين

ينتمعون بما يعلمون، لم يعلموا ذلك، ولكنهم آثروا الحياة الدنيا على الآخرة فكفروا وعصوا، فكانوا من الخاسرين .. وقريب منه ما ورد في قصة قارون من قوله تعالى:

وقال الذي أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لكم آمن وعمل صالحاً ولا يلغها إلا الصابرون. (القصص . ٨٠)

### الترهيب من السحر:

في الآية السابقة دليل على أن من يستخدم السحر ويؤمن به يكون من الكافرين، لأن قوله تعالى : وما كفر سليمان . حجة على أن السحر: ضرب من ضروب الكفر.

وقد أطلق القول بكفر من يزاوله العلامة التفتازاني.

قال ابن كثير: (وقد يستبدل بقوله ( لَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا ) من ذهب إلى تكفير الساحر كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وقول طائفة من السلف) (٢٥٦).

لكن الشيخ أبا منصور ذهب إلى أن إطلاق القول بأن السحر كفر خطأ وأنه يجب التفصيل فيه، فإن كان فيه رد ما لزم من شروط الإيمان فهو كفر وإلا فلا.

وعلى هذا فالمراد من السحر الذي هو كفر ما كان بالتقرب إلى الشيطان بالسجود له أو لصنم أو غيره، أو بالرقى بعبارات فيها شرك بالله تعالى، أو نحو ذلك مما يناهض أصول العقيدة الإسلامية، كاعتقاد الساحر أن ما يستعين به في سحر مثل الجن والنجوم - لها قدرة على النفع والضر (٢٥٧).

وعقاب السحر الذي هو كفر: قتل الذكور وحبس الإناث وضربهن ما لم تنج منهم توبة.

وأما ما ليس بكفر، وفيه إهلاك نفس، ففيه حكم قطاع الطريق ويستوى فيه الذكور والإناث، وتقبل توبة صاحبه إذا تاب، هذا وأي بعض المقهاء.

والمشهور عن أبي حنيفة - رضى الله عنه - أن الساحر يقتل مطلقاً إذا علم أنه ساحر، سواء أكان ذكراً أم أنثى وتقبل توبته إذا تاب.

ومذهب مالك - رضى الله عنه - كما نقله القرطبي: أن المسلم إذا سحر بنمسه بكلام يكون كفراً فإنه يقتل، ولا يستتاب، ولا تقبل توبته.

(وقد روى الشافعي وأحمد بن حنبل عن بحالة بن عبدة قال كتب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال فقتلنا ثلاث سواحر. وقد أخرجه البخاري في صحيحه أيضاً (٢٥٨) وهكذا صح أن حصصة أم المؤمنين سحرتهما جارية لها فأمرت بها فقتلت (٢٥٩)، قال الإمام أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - قتل الساحر (٣١٠).

### طريقة فك السحر:

حكى القرطبي عن وهب: أنه قال: يؤخذ سبع ورقات من سدر (٣١١) فتلق بين حجرين، ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاث حصوات ثم يتمتل بباقيه فإنه يذهب ما به، وهو جيد

للرجل الذي يؤخذ عن امرأته، قال ابن كثير: أضع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله في إذهاب ذلك وهما المحدثان.

وفي الحديث: «لم يتموذ بمثلها» وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان (٣٦٢).

حديث شريف:

قال صلى الله عليه وسلم: «اجتنبوا السبع الموبقات، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، والسحر، وأكل مال اليتيم» (٣٦٣).

★ ★ ★

### أدب الخطاب

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا  
وَالْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ  
وَالْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ  
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

المفردات:

راعنا أي انتظرونا وتأن بنا حتى نهم كلامك، وأصله من المراجعة، هي الرعى. وهو الحفظ والتدبير وتدراك المصالح.

انظرونا : انتظرونا وتأن بنا وأمهلتنا.

المودة : محبة الشيء وتمنى حصوله.

تمهيد:

هذا خطاب وجه إلى المؤمنين في شأن له اتصال باليهود وبه انتقل من الأحاديث الخاصة بهم إلى حديث مشترك بينهم وبين المؤمنين والبصاري.

١٠٤ - يا أيُّها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم. كان المسلمون إذا تلقى الرسول عليهم شيئا من العلم يقولون راعنا يا رسول الله يريدون منها. انتظرونا وتأن بنا حتى نفهم كلامك وبحفظه.

فتلف اليهود هذه الكلمة لموافقها كلمة سيئة عندهم هي كلمة (راعينو) المبرية أثنى معناها شرور.



وكان سعد بن عباد يعرف لغتهم فلما سمعهم يقولون ذلك قال لهم: عليكم لعنة الله لأن سمعتم من رجل منكم يقولها للبي صلى الله عليه وسلم لأصري عقه، فقالوا أولستم تقولونها.

فأنزل الله الآية بهيأ للمؤمنين عن مضاربة الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه اللعنة: قطعاً لألسنة اليهود، حتى لا يتخذونها دريعة لمحب النبي صلى الله عليه وسلم، وإيدائه والاستهزاء به.

وأمرهم أن يقولوا بدلاً منها: «أطرباً». أي انتظرباً وتأن بنا حتى نحفظ وتفهم ما تقول، فإنها تؤدي المعنى الذي يقصدونه بقولهم. راعنا. ولا يمكن لليهود أن يحرفوها إلى سبه - عليه السلام - والاستهزاء به.

واسمعوا. واحسنوا الاستماع في قبول وامتنال مع وعي قلبي، حتى تحفظوا ما يلقى عليكم ولا يفوتكم منه شيء.

وللكافرين عذاب أليم. وإن الله ليدخر عذاباً أليماً يوم القيامة لهؤلاء المستهزئين بالرسول.

وقال ابن كثير: نهى الله عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم ومغالهم، وذلك أن اليهود كانوا يمانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التقيص فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولون (راعنا) ويورون بالرعونة كما قال تعالى: من الذين هادوا يعرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعاً وعصياً واسمع غير مسمع وراعنا لئلا يؤمنهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعاً وأطعنا واسمع واسطربنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً (النساء: ٤٦)

قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندنا: أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لتبيه صلى الله عليه وسلم راعنا لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولها لتبيه صلى الله عليه وسلم (٣٦).

١٠٥ - ما يروى الذين كرموا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يرسل عليكم من حبر من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم. لا يجب الكاهن من اليهود والنصارى ولا المشركون أن ينزل الله عليكم - أيها المؤمنون - شيئاً من الخير وذلك لعداوتهم وحسدكم لكم، فهم لا يعيرونكم الخير.

والخير: النعمة والفضل، والمراد به في الآية الكريمة النبوة وما تيمها من الوحي الصادق والقرآن العظيم المشتمل على الحكمة الرائعة والبلاغة الباهرة والتوجيه النافع.

وأهل الكتاب قد كرموا ذلك للمؤمنين لعنادهم وحسدكم وكراهتهم أن تكون النبوة في رجل عربي ليس منهم.

وكذلك المشركون: كانوا يرون في اتباع نزول القرآن، قوة للإسلام وتشبهاً لدعائمه وأركانه، وهم يكرهون ذلك ويودون أن تدور الدائرة على المسلمين. ويستكبرون أن يكون نزول القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم من بينهم. وقالوا: لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (الرurf: ٣٦-٣٧)

والنبوة هضل الله تعالى يهبها من يشاء من عباده ولا ينبغي لإنسان أن يعترض على فضله سبحانه.

قال صاحب الجوهرة:

ولم تكن نبوة مكتوبة  
بل دلك فضل الله يؤتيه لمنولو رقى في الخير أعلى عقبيه  
يشاء جل الله وأهب المس

فأله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته، وهو سبحانه يصطفى للنبوة من يشاء من عباده. الله يصطفى من  
الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ. (المع: ٧٥)

وبذلك تكون الآية قد نبهت إلى أن الفصل والنبوة بيد الله، وهو الحكيم في تصرفه والعليم بما ينفع  
الناس، كما أنها حذرت المؤمنين مما يبيته لهم الكافرون من حقد وبغضاء وبشرتهم، بأن ما يبيتونه لهم لن  
يضرهم ما داموا متمسكين بكتاب ربهم وسنة نبيهم.

★ ★ ★

## النسخ

﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ ۝١٦٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ  
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٦٧﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ  
وَمَنْ يَبْدُلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١٦٨﴾

المفردات:

النسخ

في اللغة الإزالة، يقال نسخت الشمس الظل: أي أزالته.

الإنساء

: إنهاب الآية من ذاكرة النبي صلى الله عليه وسلم بعد تبليغها إياه. (أو تنسها) نبح لكم تركها  
من نسي: بمعنى ترك، دخلت عليه الهمزة للتعدي، قال أبو علي وغيره من أئمة اللغة. هذا  
متجه، لأنه بمعنى: نجعلك تتركها. وقرئ نساها - بفتح النون مهموزًا - من نساء إذا  
أخبره، أي تؤخر ثرونها عليكم.

الولي

: من يلي أمرك أو يملكك كالنولي.

النصير

: المعين.

سبب النزول:

روى أن هذه الآيات نزلت حين قال المشركون أو اليهود: ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر لم ينهاهم  
عه ويأمرهم بخلافه ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غدًا، فقد أمر في حد الزنى بإبداء الزانين باللسان، حيث

قال: (هأدوهما) ثم عبره وأمر بإسماكن في البيوت حيث قال: فأسكنوه في البيوت حتى يتولاهن الموت (النساء ١٥) ثم غيره بقوله فأخذوا كل واحد منهما مائة جلد (النور ٢) هما هذا القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه بإقصاء بعضه بمصا، ومقصدهم من ذلك الطعن في الدين ليثبطوا عزيمته من يريد الدخول فيه.

#### التفسير:

١٠٦ - ما نسخ من آية أو نسها بأث بحبرٍ منها أو مثلها ألم نعلم أن الله على كل شيء قدير. أي شيء من الآيات والأحكام نهي عن التعدي به، أو نجعلكم تتركونه، تأتي بأفضل منه، مثوبة أو معاً أو خفة على المكلفين، أو تأتي بمثلته في ذلك، فإن تنزيل الآيات المشتملة على الأحكام الشرعية، يكون وفقاً للحكم والمصالح، وذلك يختلف باختلاف الأحوال فرب حكم تقتضيه الحكمة في حال، وتقتضي نقضه في حال أخرى، فهو لم يجز النسخ، لاختلاف ما بين الحكمة والأحكام من النظام. وهذا الحكم غير مختص بالآية الواحدة كاملة، بل هو جار فيما فوقها وما دونها وتخصيصها بالذكر، باعتبار العالب.

لقد كان هناك تدرج في تشريع الأحكام بما يتناسب مع كل مرحلة، فعين كان المسلمون في مكة قبل الهجرة ضعافاً في العدة والعدد أمرهم الله بالصبر والاحتمال، ولما هاجروا إلى المدينة وقامت دولتهم وقويت شوكتهم سمح الله لهم بالجهاد والقتال، وقال سبحانه:

أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على بصيرهم بقدير \* الذين أخرجوا من ديارهم بهر حق، إلا أن يقولوا ربنا الله. (الحج ٢٩ - ٤٠)

وقد قال بعض المفسرين إن هذا نسخ، أي نسخت آية القتال الأمر بالصبر والاحتمال - ولكن الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) جمعه من باب التدرج في التشريع.

فقد باسب حال الصعيف وانقلا الصبر والاحتمال كما ناسب حال القوة والكثرة، الدعوة للجهاد والقتال. فكلمة كان المسلمون ضعافاً ناسبهم الصبر والمهادنة، وكلما كانوا أقوىاء ناسبهم الجهاد والمقاتلة

وقال بعض المفسرين إن المراد من الآية الشريعة، والمراد من نسخها على هذا تغييرها بشريعة أخرى تأتي بعدها.

أي ما نغير شريعة من الشرائع المعلومة للناس كالتوراة والإنجيل والزيور أو نجعلها منسية دارسة لا علم للناس بها، كالشرائع المجهولة لنا النازلة على بعض من قصهم الله علينا من الأنبياء، ومن لم يتقصصهم علينا.

بأت بشريعة خير منها أو مثلها حسبما ينبغي لحال الأمة التي شرعت لها. ومن الباحثين من قال، المراد من الآية المعجزة، ونسخها تغييرها، ويكون معنى الآية: ولقد طلبوا منك يا محمد أن تأتيهم بالمعجزات التي حاجهم بها موسى وأنبياء بني إسرائيل، وحسينا أنا أيديك بالقرآن، وأنا إذا تركنا تأييد بني متأخر بمعجزة كانت لنس سابق أو أنصينا الناس أثر هذه المعجزة فإننا تأتي على يديه بخير منها أو مثلها هي الدلالة على صدقه فآله على كل شيء قدير.

## ما هو النسخ:

النسخ في اللغة الإزالة والإبطال. يقال نسخت الشمس الظل إذا أذهبت وأبطلته.

والنسخ شرعاً: إزالة حكم شرعي سابق بخطاب ورد متأخراً عنه لولا هذا الخطاب لاستمر الحكم على مشروعيته بمقتضى النص الذي تقر به أولاً.

وقد أكرت النسخ طوائف من اليهود، زاعمين أن ذلك من البداء، وهو مستحيل على الله، وقد كذبوا، فإن النسخ هو النقل من حكم إلى حكم لضرب من المصلحة.

ولا خلاف بين العقلاء في أن شرائع الرسل قصد بها مصالح الخلق الدنيوية والأخروية.

وأما البداء فهو ترك ما عزم عليه أولاً والمداول عنه كقولك لشخص امض إلى فلان ثم يبدو لك نقض الرأي الأول فتقول لا تمض. على سبيل التفاضل والتقلب في الرأي، وهذا معال على الله تعالى. لكمال علمه وحكمته.

ونسخ الحكم إما أن يكون بأمر منه في العمل كما نسخت عدة المتوفى عنه زوجها من الحول إلى أربعة أشهر وعشرة أيام، وإما بمساو له كمنسوخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة عند الصلاة، وإما بأشق منه يكون ثوابه أكثر كما نسخ ترك القتال بإيجابه على المسلمين.

## قال الأستاذ سيد قطب:

ما نسخ من آية أو نسخها بأمر غيره منها أو مثلها. سواء كانت المناسبة هي مناسبة تحويل القبلة، كما يدل سياق هذه الآيات وما بعدها، أم كانت مناسبة أخرى من تعديل بعض الأمور والتشريعات والتكاليف، التي كانت تتابع نمو الجماعة المسلمة وأحوالها المتطورة، أم كانت خاصة بتعديل بعض الأحكام التي وردت في التوراة مع تصديق القرآن في عمومها للتوراة.

سواء كانت هذه أم هذه، أم هذه، أم هي جميعاً المناسبة التي اتخذها اليهود ذريعة للتشكيك في صلب العقيدة... فإن القرآن يبين هنا ببياناً حاسماً في شأن النسخ والتعديل، وفي القضاء على تلك التبهات التي أثارها اليهود، على عاداتها وخطتها في معارضة هذه العقيدة بشتى الأساليب.

ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير. الخطاب فيه لكل من لديه علم وعقل، والاستقهام للتقرير، والمراد بهذا التقرير الاستشهاد بعلم المخاطب بأنه تعالى: على كل شيء قدير. على قدرته على النسخ، والإنهاء بما هو خير من المسوخ أو مثله.

١٠٧ - ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير<sup>(٣٥)</sup>. لما ذكر في الآية السابقة أنه تعالى على كل شيء قدير ذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك وهو أنه تعالى له ملك السموات والأرض واستشهد على ذلك بعلم كل ذي علم.

والمعنى: أنه سبحانه مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية وهو سبحانه المتصرف كما يشاء في ذواتها

وأحوالها. وأنه سبحانه يتصرف في أمورهم ويجريها على حسب ما يصلحهم، وهو أعلم بما يتبعدهم به من ناسخ ومنسوخ.

والخطاب هنا للمؤمنين يعمل راحة التحذير، ورائحة التذكير بأن الله هو وليهم وناصرهم وليس لهم من دونه ولي ولا نصير.

قال ابن كثير:

وقوله تعالى: أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ. يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء فله الخلق والأمر، وهو المتصرف. فكما خلقهم كما يشاء، ليسعد من يشاء، ويشقى من يشاء، ويصنع من يشاء ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء ويضل من يشاء، كذلك يحكم في عياده بما يشاء، فيعلم ما يشاء ويعزم ما يشاء ويبيع ما يشاء ويعطر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ويعتبر عبادته وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره، واتباع رسله في تصديق ما أخبروا: وامتثال ما أمروا به، وترك ما عنه زجروا، وفي هذا المقام رد عظيم، وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييم شبهتهم - لهم الله - في دعوى استحالة النسخ، إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكبراً، وإما نقلاً كما تخرسه آخرون منهم افتراء وإفكا. وقال الإمام أبو جعفر الطبري - فتأويل الآية: أَلَمْ تَعْلَمْ يَا مُحَمَّدُ أَنَّ لِي مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسُلْطَانُهُمَا دُونَ غَيْرِي، أَحْكَمُ فِيهِمَا وَهَيْمًا فِيهِمَا بِمَا أَشَاءُ وَأَمَرَ فِيهِمَا وَهَيْمًا فِيهِمَا بِمَا أَشَاءُ وَأَهْلِي عَمَّا أَشَاءُ وَاسْخَ وَأَبْدَلُ وَأَغَيَّرُ مِنْ أَحْكَامِي الَّتِي أَحْكَمُ بِهَا فِي عِبَادِي بِمَا أَشَاءُ إِذَا أَشَاءُ، وَأَقْرَ فِيهِمَا مَا أَشَاءُ.

ثم قال وهذا الخير وإن كان من الله تعالى خطأً لتبنيه صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته، فإنه منه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة، وجعدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وعلق ابن كثير على كلام الطبري بقوله:

قلت: الذي يعمل اليهود على البحث في مسألة النسخ إنما هو الكفر والمناد بأنه ليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحكام الله تعالى، لأنه يحكم ما يشاء، كما يفعل ما يريد، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية، كما أحل آدم تزويج بياته من بنيه، ثم حرم ذلك، وكما أباح نوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نسخ حل بعضها، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل ونفيه، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، وأشياء كثيرة بطول ذكرها، هم يمتنعون بذلك ويصدفون عنه، أو ما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية، فلا يصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصود، كما هي كنههم مشهوراً من الإشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم، والأمر باتباعه فإنه يفيد وجوب متابعتة - عليه السلام - وأنه لا يقبل عمل إلا بشريعته وسواء قيل: إن الشرائع المتقدمة مفيدة إلى بعثته عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً، كقوله: ثُمَّ أُنْمِرُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ. أو قيل إنها مطلقة، وإن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم نسختها، فعلى كل تقدير فوجوب متابعتة، لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى<sup>(٣٦١)</sup>.

١٠٨ . أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد حلّ سواء السبيل . نهى القرآن عن سؤال النبي صلى الله عليه وسلم على وجه التفتت والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تمتاً وتكديباً وعناداً . قال تعالى :

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَأَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .

وقد اختلف المفسرون في سبب نزول الآية .. أم تريدون أن تسألوا رسولكم . والراجع إليها نزلت في شأن اليهود حين قالوا يا محمد افتنا بكتاب من السماء جملة ، كما أتى موسى بالتوراة جملة .

واحتار هذا الإمام الرازي وقال : إنه الأصح لأن الحديث من أول قوله تعالى . يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي ، (البقرة : ١٠) إلى حكايته عن اليهود ومحاجته معهم ، ولأنه جرى ذكرهم قبل ذلك دون غيرهم .

وقيل إنها نزلت في المؤمنين توصية لهم بالثقة بالرسول صلى الله عليه وسلم وترك الاقتراح عليه . وقد ذهب إلى هذا الرأي ابن كثير في تفسيره .

ويكون معنى الآية :

لا يصلح لكم أيها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم مقترحات تتناقى مع الإيمان الحق كأن تسألوه أسئلة لا خير من ورائها لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبنى إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى عليه السلام بعد أن جاءهم بالبينات مطالب تدل على تمتهم وجهلهم ، فقالوا : أَرَأَى اللَّهَ جَهْرَةً . (النساء : ١٥٢) وقالوا : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . (الأعراف : ١٢٨) ولو صرتم مثلهم لكتمتم ممن يختار الكفر على الإيمان ولخرجتم على الصراط المستقيم الذي يدعوكم إليه نبيكم صلى الله عليه وسلم

فلاستهزاء في الآية الكريمة للإنكار وفي أسلوبها مبالغة في التحذير من الوقوع فيما وقع فيه اليهود من نعت مع رسولهم . إذ جعل محط الإنكار إرادتهم السؤال . وفي النهي عن إرادة الشيء . نهى عن فعله بأبلغ عبارة .

قال ابن كثير :

نهى الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل حدوثها كما قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلْ لَكُمْ شَيْئًا وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ .

أي وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزلها تبين لكم . ولا تسألوا عن الشيء قبل وقوعه . فلهذا إن يحرم من أجل تلك المسألة ، ولهذا جاء في الصحيح : « إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسأله » (٢٦٧) .

وثبت في الصحيحين من حديث المعيرة بن شعبه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » (٣٨) .

وفي صحيح مسلم: «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» (٣٦٩).

وروى البزار عن ابن عباس قال، ما رأيت قوماً حريصاً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلا عن اثنتي عشرة مسألة، كلها في القرآن. يسألونك عن الخمر والميسر، و يسألونك عن الشهر الحرام، و يسألونك عن النكاح، يعني هذا وأشباهه (٣٧٠).

\*\*\*

## تحذير

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ رَدُّوهُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِهِمْ كَمَا رَاحَسُوا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ مُّبِينٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

المفردات:

ود : تسمى وأحب.  
فامعوا واصفحوا : العفو: ترك العقوبة على الذنب، والصفح ترك اللوم عليه، وهو أبلغ من العفو، إذ قد يعفو ولا يصفح.  
حتى ياتي الله بأمره : بإدته ومومته.  
تجدوه منه الله : تجدوا ثوابه عنده.  
واقيموا الصلاة : أدوها بآركانها وشروطها وميثاقها في أوقاتها، وأصله أفضل من قام الحق: ظهر وثبت، أي أظهرها على النحو الذي يرضيه الشارع.

معنى الآيتين:

ولقد تسمى كثير من اليهود أن يردوكم إلى الكفر بعد إيمانكم، مع أنه قد تبين لهم من كتابهم نفسه أنكم على الحق، وما ذلك إلا أنهم يعسدونكم ويغشون أن ينتقل إليكم السلطان ويفلت من أيديهم، فأعرضوا عنهم، واعفوا واصفحوا حتى يأتى الله لكم بمسلك آخر حيالهم فهو القادر على أن يمتكنكم منهم، وهو على كل شيء قدير.

وحافظوا على شعائر دينكم، فاقيموا الصلاة، واعطوا الزكاة، وما تقدموا لأنفسكم من أعمال طيبة وصدقة تحذروا ثوابه عند الله إن الله بما تعملون عليم، علم من يبصر ويرى.

## متعلقات المعنى:

١ - قوله تعالى: وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا . بيان للون من أوان الشرور التي يصمرها أهل الكتاب، وعلى رأسهم اليهود، وهو تمنيتهم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق إلى الكفر الذي أنقدهم الله منه، وإنما أسند سبحانه هذا التمنى التميم إلى الكثرة منهم، إنباهاً لنفلة المؤمنة التي لم ترض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هدهم الله إلى الإسلام.

٢ - يشير قوله تعالى: حسداً مِّنْ عَدُوِّهِمْ . إلى أن تمنى كفر المؤمنين لم يكن له من سبب أو علة سوى الحسد الذي استولى على نفوس اليهود. واستحوذ على قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان، ويتمنون التحول عنه إلى الكفر، فالجملة الكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر.

(والحسد): قلق النفس لرؤية نعمة يصيبها إنسان، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير، وتمنى زوال النعم مدموم بكل لسان، إلا نعمة أصابها فاجر أو جائر يستعين بها على الشر والقصاد، فإن تمنى زوالها كراهة للجور والقصاد لا يدخل في قبيل الحسد المذموم، فإن لم تمنى زوال النعمة عن شخص وإنما تمنيت لنفسك، مثلها هي القبحة والمنافسة، وهي محمودة لأنها قد تنتهي بالشخص إلى اكتساب محامد لولا المايسة لظل في غفلة عنها، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون في وسعه دفعه لشدة النفرة بيه وبين الحسود، وإنما يؤاخذ الإنسان على رضاه به، وإظهار ما يستدعيه من القبح في الحسود، والقصد إلى إزالة النعمة عنه (٣٧١).

وفي الحديث الشريف: « ثلاث لا ينجو منه أحد: الحسد، والمليرة، والظن، قيل: فما المخرج منهن يا رسول الله؟ قال: إذا حسدت فلا تبغ، وإذا تظلمت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تتبع » (٣٧٢).

فهذه الأشياء تهجم على الإنسان، والمؤمن مطالب ألا يستمرسل فيها فإذا حسد أو أحس بيوادر الحسد فلا ينبغي له العدوان أو القبح أو البغي على الحسود.

وإذا تظلم وتشاء من شيء فلا يرجع ولا يستمرسل في تشاؤمه بل يقل: « اللهم لا يأتني بالخير إلا أنت، ولا يذهب السوء إلا أنت اللهم اكفني السوء بما شئت إنك على ما تشاء قدير ».

وإذا ظن الإنسان بآخر فلا يستمرسل في تتبعه، ولا يتابعه بالتحسس عليه، وبذلك يسلم المسلم من بواذر هذه الأمور الثلاثة حيث يوقفها عند حدها، ولا يسمح لها بالتعدي على الآخرين.

٣ - قوله تعالى: مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان وقعت بعد أن ظهر لهم صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد أن تبين لهم أن الصفات التي وردت في التوراة بشأن النبي المبشر به، لا تنطبق إلا عليه، وإذا فكفروهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل، ذلك هو شأن أحيارهم الذين كانوا على علم بالتوراة، وتشيرها مائبي صلى الله عليه وسلم.

٤ - قوله تعالى: فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أي لا تعاقبهم ولا



تلومهم حتى يأذن الله بالقتال في الوقت الذي يختاره لكم . وقد أنزل الله تعالى بعد ذلك الإذن بقتال اليهود في قوله: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ. (النوبة ٢٩) كما أذن بإجلائهم عن المدينة.

هـ - قال السيد وشيد رضا في تفسير المنار:

قال الأستاذ الإمام: وفي أمره تعالى لهم بالعمو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة، لأن الصفح إنما يطلب من القادر على خلافه، كأنه يقول:

لا يفرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، فعاملوهم معاملة القوى العادل، للقوى الجاهل. وفي إنزال المؤمنين على ضمتهم منزلة الأقوياء ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء، إيدان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالمنايا الإلهية، وأن المرة لهم ما ثبتوا على حقهم، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذي يصرع الباطل كما قلنا غير مرة، وإنما بقاء الباطل في غفلة الحق عنه (٢٧٢).

١١٠ - وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

أمر الله المسلمين بالمحافظة على عمودى الإسلام وهما العبادة البدنية التي تؤكد حسن صلة العبد بخالقه وهي الصلاة، والعبادة المالية التي تؤلف بين قلوب المومنين والمومنين وهي الزكاة.

وجاءت جملة: وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ.

لترغبهم في عمل الخير على وجه عام ولتحثهم على التزود من الأعمال الصالحة سواء أكانت فرضاً أم نفلاً.

وجاءت جملة: إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، لتأكيد ذلك المعنى.

روى أن الإمام على كرم الله وجهه كان إذا دخل المقبرة قال: السلام عليكم أهل هذه الديار الموحشة، والمحال المغفرة، من المؤمنين والمؤمنات، ثم قال- أما المازل فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت، وأما الأرواح فقد كسحت، فهذا خبر ما عندنا، فليت شمري ما عندكم؟ والذي نسمي بيده لو أن لهم في الكلام لقائلوا: إن خير الزاد التقوى.

وفي الحديث الصحيح: هـ إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له هـ (٢٧١).

## أمانى كاذبة

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٦﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٧﴾﴾

المفردات:

هودا : جمع هائد، كمؤذ جمع عائد، ومعنى الهائد فى الأصل النائب والمقصود هنا بالهود : اليهود .

أو نصارى

: يمتنون المسيحيين، جمع نصران ونصرانة، سموا بذلك نسبة إلى بلدة الناصرة التى كان ينزل بها عيسى، أو لأنهم أحابوا عيسى إلى نصره لما قال لهم. من اصارى إلى الله؟.

الأمانى

: واحدها أمانة وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه، والعرب تسمى كل ما لا حجة عليه ولا برهان له تمنيا وضرورا، وضلالا وأحلاما.

برهانكم

: حججتكم.

إسلام الوجه لله : هو الانتقاد والإخلاص له فى العمل بحيث لا يجعل العبد بينه وبين ربه وسما. .

التفسير:

قالت اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصريانا، يمتنون بذلك: أن المسلمين لن يدخلوها، تنفيرا للمسلمين من دينهم، وإثارة للفتنة بينهم، لأنهم كما تقدم يودون ردتهم.

وجمع بين كلام الفريقين فى النظم الكريم للإيجاز، وثقة بأن الصامع يرد إلى كل فريق قوله، لأن العداوة بين الفريقين معلومة (١٧٥)، ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يطالبهم بالدليل على صحة ما يدعون فقال تعالى: قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ أى قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن الجنة لهم خاصة من دون الناس: هاتوا حججتكم على خلوص الجنة لكم إن كنتم صادقين فى دعوكم

لأنه لما كانت دعوهم الاحتصاص بدخول الجنة لا تثبت إلا بوحي من الله وليس لمجرد التمنى، أمر الله تعالى نبيه أن يطالبهم بالدليل من كتبهم على صحة دعوهم، وهذه المطالبة من قبيل التمييز لأن كتبهم حالية مما يدل على صحتها.

١١٦ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أى: بلى

يدخل الجنة من أخلص نفسه ودانته لله، فآمن به وترعه تعالى عن الولد (وهو محسن) فى جميع أعماله التى منها الإسلام.

والإحسان أداء العمل على وجه حسن أى مطابق للصواب وهو ما جاء به الشرع الشريف.

ومقصود الآية ليس الحق فيها زعمه كل فريق منكم يا معشر اليهود والنصارى من أن الجنة لكم دون غيركم، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن، فإنه يدخل الجنة، وبإلا أجره اللائق به ولا يخاف في الدارين من لحوق مكروه ولا يحزن على فوت مطلوب.

وقد أعادت الآية الكريمة ما يأتي:

١ - إثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

٢ - بيان أنهم ليسوا من أهل الجنة إلا إذا أسلموا وجوههم لله.

٣ - بيان أن العمل المقبول عند الله تعالى يجب أن يتوافر فيه أمران أولهما: أن يكون خالصاً لله وحده، ثانيهما: أن يكون مطابقاً للشرعية التي ارتضاها الله تعالى وهي شريعة الإسلام.

**قال ابن كثير في تفسيره:**

فإن للعمل المتقبل شرطين، أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشرعية، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل؛ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) (٣٧) رواه مسلم من حديث عائشة.

فحمل الرهبان ومن شابههم - وإن فرض أنهم يحلصون فيه لله - فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وهبهم وأمثالهم قال تعالى

وَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءًا مُّثَوْرًا . (الفرقان : ٢٢)

وقال تعالى : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٍ يخسبها الظُّمآنُ ماءٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا . (البور : ٣٩)

وروى عن أمير المؤمنين ع: أنه تأولها في الرهبان، وأما إن كان العمل موافقاً للشرعية في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو أيضاً مردود على فاعله وهذا حال المنافقين والمرائين.

كما قال تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُتَاتَىٰ يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . (النساء: ١٩) وقال تعالى: فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ \* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ \* الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ \* وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ . (الماعون: ٤-٧)

ولهذا قال تعالى: فمن كان يَرْجُو لقاء ربّه فليُخْلِمْ عَمَلَ صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبّه أَحَدًا . (الكهف : ١١٠)

## تهم متبادلة

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُم يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۙ ﴾

المضردات:

قال الذين لا يعلمون : المراد بهم عبدة الأصنام والمطللة ونحومهم من الجهلاء.

مثل قولهم : بأن قالوا عن أهل كل دين آخر: ليسوا على شيء.

التفسير:

انكرت اليهود رسالة المسيح مع أن التوراة بشرت به، ومازالوا يزعمون أن المسيح الميشر به هي التوراة لم يأت وسياى بعد، فهم يعتقدون أن النصارى باتباعهم له ليسوا على أمر حقيقى من التدين.

والنصارى تكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح الذى جاء لإتمام شريعتهم، ونشأ عن هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء والتعصب حتى صار كل فريق يطعن فى دين الآخر، وينفى عنه أن يكون له أصل من الحق، ثم بين الله مدى جهلهم وعنادهم حقيقاً فقال سبحانه: وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ. وهى جملة حالية، والكتاب للجسم، أى قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب، إذ اليهود يقرؤون التوراة والنصارى يقرؤون الإنجيل، وحق من حمل التوراة والإنجيل وغيرها من كتب الله وآمن بها ألا يكفر بالباقي لأن كل واحد من الكتابين مصدق للثانى، شاهد بصحته، وكذلك كتب الله جميعاً متواردة على تصديق بعضها بعضاً.

كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم. أى مثل هذا القول الذى لم يبن على برهان، قال الجهلة من عبدة الأوثان لأهل كل دين لستم على شيء، والحق وراء هذه المزاعم، فهو إيمان خالص وعمل صالح لو عرّبه الناس حق المعرفة لما تفرقوا ولا احتملوا فى أصوله، لكنهم تعصبوا لأهوائهم فاختلفوا وتفرقوا طرائق قددا.

فألله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. صدرت هذه الجملة بالفاء، لأن التوعد بالحكم بينهم يوم القيامة، وإظهار ما أكتنه ضمائرهم من الهوى والضلال، متفرع من هذه المقالات ومسبب عنها، وهو خبر المقصود منه التوبيخ والوعيد،

والصبر فى بينهم (راجع إلى الفرق الثلاث، وقيل الضمير يعود على اليهود والنصارى).

قال ابن كثير:

قوله تعالى: فألله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون. أى أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد

ويعصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة. وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحج فى الآية ١٧ . إِنْ الدِّينَ أَمَنُوا وَالدِّينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . وكما قال تعالى قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ (٢٧٧).

ولم تصرح الآية الكريمة بماذا يعكم الله بينهم، فإنه من المعلوم من مظاهر حكم الله يوم القيامة إثابة من كان على حق وعقاب من كان على باطل.

قال الزمخشري: فالله يحكم بين اليهود والنصارى. يوم القيامة بما ينقسم لكل فريق منهم من العقاب الذى استحقه، وعن الحسن: حكم الله أن يكذبهم ويدخلهم النار (٢٧٨).

★ ★ ★

### تخريب المساجد

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

المضردات:

من أظلم

: استفهام إنكارى بمعنى النقيض، والمعنى: لا أحد أظلم.

مساجد الله

المراد بها جميع مساجد الله وأماكن عبادته، فالآية قاعدة عامة وإن كان سبب النزول خاصاً كما سيأتى.

لهم فى الدنيا خزي : هوان ودلة.

تمهيد:

تصدت أقوال المفسرين فيما تشير إليه الآية :

- ١ - فىرى بعض المفسرين أنها تشير إلى ما وقع من تيطس الروماني إذ دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة وحرب المسجد حتى لم يبق منه حجراً على حجر، وهدم هيكل سليمان حتى لم يترك إلا بعض جدران مبشرة، وأحرق بعض نسخ التوراة، وكان هذا بإيعاز وتحريض من المسيحيين انتقاماً من اليهود
- ٢ - ويرى بعض المفسرين أنها نزلت فى كفار قريش حين تمتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية، روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن قريشاً ميمواً التمس صلى الله عليه وسلم من الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام فأنزل الله . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ .

ويرجع ابن جرير الطبري القول الأول، واحتج بأن قريشاً لم تسع في حراب الكعبة، وأما الروم فسموا في تحريب بيت المقدس.

وقال ابن كثير: الذي يظهر والله أعلم القول الثاني وأما اعتماد ابن جرير على أن قريشاً لم تسع في حراب الكعبة فأى حراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا منها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم، قال تعالى: **هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُومًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلُّهُ**.

إذاً كان الرسول مطروداً منها مصدوداً عنها فأى حراب للكعبة أعظم من ذلك؟ وليس المراد بمعارتها زحرفتها وإقامة صورتها فقط، وإنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها ورفعها عن الدنس والشرك (٢٧٩).

والمتأمل في الآية يرى أنها عامة، تشمل بذمها ووعيدها كل من عطل المساجد عن أداء رسالتها، أو أذهب المؤمنين ومنعمهم من دخولها.

قال القرطبي: وخراب المساجد قد يكون حقيقياً، كتحرير بختصر والرومان لبيت المقدس حيث قدحوا فيه القاذورات وهدموا، ويكون مجازاً كمنع المشركين حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد لحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها (٢٨٠).

وظاهر الآية يفيد أنه لا يوجد أحد أظلم ممن حال بين المساجد وبين أن يعبد فيها الله.

قال الزمخشري: إن قلت فكيف قيل مساجد الله وإنما وقع المنع والتخريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت: لا بأس أن يعيى الحكم عاماً، وإن كان السبب خاصاً، كما تقول لمن أذى صالحاً واحداً: من أظلم ممن أذى الصالحين، كما قال عز وجل:

**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ** . والمنزل فيه الأخنس بن شريق.

وسعى في خرابها ربانقطاع الذكر أو تخريب البنيان، ويبقى أن يراد بمن مع المصوم كما أريد بمساجد الله، ولا يراد الذين متعوا بأعيانهم من أولئك النصارى أو المشركين (٢٨١).

أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا حائن. معناه ما ينبغي لأولئك الذين يهولون بين المساجد وذكر الله ويسعون في حرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله تعالى لمكانها من الشرف والكرامة بإصافتها إليه تعالى، أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم بقوة لهم على إفسادهم لدين الله وبيوته.

أي أنهم يستحقون الدفع والمطاردة والحرمان من الأمن، إلا أن يلجأوا إلى بيوت الله مستحبرين محتجين بحرمتها مستأمنين ( وذلك كالأذى حدث في عام الفتح بعد ذلك إذ نادى نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح: من دخل المسجد الحرام فهو آمن .. فلجأ إليه المستأمنون من جياورة قريش بعد أن كانوا هم الدين بصدور رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ويمتنعونهم من زيارة المسجد الحرام) (٢٨٢).

قال ابن كثير: (وفي هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام، ويدل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ بهماقب) (٢٨٣).

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . أى لهم في الدنيا هوان ودلة بسبب ظلمهم وبغيهم، ولهم في الآخرة عذاب عظيم يظنون معه في النار، وليس هنالك أشقى ممن يعيش دنياه في هوان ومذلة ثم يلقي العذاب العظيم في الآخرة.

وفسر قتادة الخزي في الدنيا: بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون (والصحيح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد في الحديث الاستعاذة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة).

روى الإمام أحمد عن بسر بن أرطاة، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو: اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة) وهذا حديث حسن (٢٨٤).

★ ★ ★

## فصل الله

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمُوجُهُ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ (١١٥)

المفردات:

المشرق : موضع المشرق.

المغرب : موضع المغرب، والمراد بهما هنا: هما وما بينهما من الجهات والأماكن.

فتم وجه الله : أى ههنا جهته، أى قبلته التى أمر عباده أن يتجهوا إليها فالوجه والجهة شيء واحد.

إن الله واسع عليم : أى يوسع على عباده، أو لا يحصر ولا يتعدد، أو واسع العلم محيط بما تستعلمون علمه فلا يكلمكم ما يشق عليكم.

التفسير:

وردت عدة روايات في معنى هذه الآية وأسباب نزولها، ومن هذه الروايات ما يأتى:

١ - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكمبة بين يديه، فلما قدم المدينة توجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ثم صرعه الله إلى الكعبة بعد ذلك.

١١٥ - ولهدا يقول تعالى . وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمُوجُهُ اللَّهُ . روى أبو عبيدة القاسم بن سلام في كتاب التامخ والنموخ عن ابن عباس قال: أول ما سمع من القرآن، فيما ذكر لنا والله أعلم، شأن القبلة، قال الله تعالى . وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمُوجُهُ اللَّهُ . فاتجه رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاته نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرعه الله إلى بيته العتيق ونسخها فقال.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ (٢٨٥).

٢ - وقال ابن عمر وآخرون: نزلت هذه الآية إننا من الله أن يصلى المتطوع حيثما توجهت به راحلته من شرق أو غرب، وفي حال المماينة وشدة الخوف.

أخرج مسلم عن ابن عمر رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى وهو مقبل من مكة إلى المدينة حيث كان وجهه وفيه ثرث: فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ (٢٨٦). نقله القرطبي، ونقله أيضاً ابن كثير عن ابن جرير الطبري.

٣ - وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض الله التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها تعالى ليعلم نبيه صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحي المشرق والمغرب، لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وتاحية إلا كان علم الله جل شأؤه في ذلك الوجه وتلك التاحية لأن له تعالى المشرق والمغرب كما قال تعالى: وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا. (المائدة ٧)

قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام (٢٨٧).

٤ - وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أبعاء محتملة، فقال الله تعالى لى المشرق والمغرب، فأين وليتم وجوهكم هناك وجهى وهو قبلكم، فعليكم بذلك إن صلاتكم ماضية.

روى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « ما بين المشرق والمغرب قبلة » قال الترمذى: حسن صحيح (٢٨٨).

وقال: وقد روى من غير واحد من الصحابة (ما بين المشرق والمغرب قبلة) منهم عمر بن الخطاب وعلى وابن عباس.

٥ - قال ابن جرير: ويعتدل. فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لى فهناك وجهى أستجيب لكم دعائكم. ثم روى عن مجاهد قال: لما نزلت ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ، قالوا: إلى أين؟ فنزلت: فَأَيُّمَا تَوَلَّوْا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ.

ودا ربطنا الآية بما سبقتها من أن الظالمين قد يمنعون المصلين من الصلاة في مساجد الله. رأينا أن المقصود من الآية الإذن بإقامة الصلاة في أى مكان من الأرض دون أن تحتص بها المساجد ففي الحديث الشريف « جعلت لى الأرض مسجداً وترابها طهوراً فأينما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل » (٢٨٩).

وكان السابقون لا يصلون إلا في بيهم أو كنائسهم وكان الآية توهم إلى أن سمى أولئك الظالمين في منع المساجد من أداء رسالتها وتضييعها لا يمنع من أداء العبادة، لأن لله المشرق والمغرب وما بينهما فأينما حل الإنسان واتجه بمباداة إلى الله فهي مقبولة، والله تعالى راض عنه مقبل عليه. إن الله واسع. يوسع على عباده في دينهم ولا يكلفهم بما ليس في وسعهم. عليم. بمصالحهم وبما يعملون في مختلف أماكنهم.



## تنزيه الله عن الولد

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَدِينٌ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾

المفردات:

اتخذ: من الاتحاد وهو المنع والجمع والعمل.

الولد: تطلق على الذكر والأنثى والواحد والجمع.

سبحانه: تنزيهاً وتبرئة لله لائتة به مما قالوا.

قانتون: منقادون خاضعون.

بديع: بمعنى المبدع، والإبداع هو إيجاد الشيء بصورة مخترعة على غير مثال سابق.

بديع السموات والأرض: مبدعها ومخترعها على غير مثال سابق، وكما يأتي فمبيل بمعنى مفعول، كجريح بمعنى مجروح، يأتي فاعل كما هنا ونظيره السميع بمعنى المسمع في قول الشاعر: (أمن ربحانة الداعي السميع) وكل من أنشأ ما لم يسبق يقال له مبدع ومنه اصعب البدع.

التفسير:

جاء الإسلام بتوحيد الخالق وتنزيهه عن الولد بين أهل كتاب ومشركين يزعمون أن لله ولداً.

هاليهود يزعمون أن عزيزاً ابن الله، والتصارى يزعمون مثل ذلك لعميسى، والمشركون يزعمون مثله للملائكة فيقولون إنها بنات الله، ولا حارق بين أن يكون هذا القول قد صدر من جميع أفراد الأمة أو بعضها فإن أفرادها متكاملون في كل ما يملكون وما يقولون، مما يمود أثره من خير أو شر إلى الجميع. فيصح أن يكون الصمير في وقالوا اتحد الله ولداً، عائداً إلى المرق الثلاث أو على بعضهم، فمن المعروف أن القرآن يجري على الأسلوب المعروف في المخاطبات حيث يسند إلى القوم ما صدر عن بعضهم فحين قال - وقالت اليهود غريباً أن الله - (التوبة: ٣٠) أصبح من السائق في صفة المسمى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم

سبحانه: أي تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك تعالى علواً كبيراً، لافتضاء الوالدية الجنسية والتاسل والاعتقار والتشبيه والحدوث.

بل لهُ ما في السموات والأرض: إضراب عن مقالاتهم التي نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد وشروع في الاستدلال على بطلانها. قال ابن كثير:

«أي ليس الأمر كما افترضوا وإنما له ملك السماوات والأرض وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم

ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له وملك له. فكيف يكون له ولد منهم؟ والولد إما يكون متولداً من شيئين متناسين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه، ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟.

كما قال تعالى بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم.

وقال تعالى:

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۚ تَكَذَّبَ السَّمَاوَاتُ بِتَطَرُّنٍ مِنْهُ وَتَشَقَّقُ الْأَرْضُ وَتَهْرُ الْجِبَالُ هُدًّا ۚ أُنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۚ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا. (مريم ٨٨ - ٩٥)

وقال تعالى: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۚ اللَّهُ الصَّمَدُ ۚ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۚ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. (الإخلاص)

فقرر تعالى في هذه الآية الكريمة، أنه السيد العظيم الذى لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربية فكيف يكون له منها ولد؟

وهي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنه قال:

لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجملون له ولداً وهو يبرقهم ويمافهم (٣٩٠).

كُلُّهُ قَانُتُون : كل له مطيعون طاعة تمشير وانقياد، خاضعون لا يستمضى منهم شيء على مشيئته وإرادته، شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة من الخضوع، وإنما جاء قَانُتُون بجمع المذكر المختص بالمعلاء، مع أن الخضوع لله يكون من المعلاء وغيرهم، فغلبنا للمعلاء على غيرهم، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة، ولأن ظهورهم اكمل من ظهوره في غيرهم.

وفصلت جملة - كُلُّهُ قَانُتُون - عن سابقتها لتقصد استقلالها بالاستدلال على نفي أن يكون لله ولد، حتى لا يظن السامع أنها مكملة للدليل الموقر له قوله تعالى - لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

١١٧ - بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، أى مبدع السماوات والأرض ومنشئها بلا احتذاء ولا اقتداء وبلا آلة ولا مادة، صفة مشبهة من أبداع، والذي ابتدعها من غير أصل ولا مثال هو الله تعالى، وحص السماوات والأرض بالإبداع لأنهما أعظم ما يشاهد من المخلوقات.

قال ابن جرير: فمعنى الكلام: سبحانه الله، أنى يكون له ولد وهو مالك السماوات والأرض، تشهد له جميعها - بدلاتها عليه - بالوحدانية وتقر له بالطاعة، وهو يارثها وخالقها وموجدتها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه. وهذا إعلام من الله عباده أن ممن يشهد به بذلك المسيح الذى أحضاهوا إلى الله بيوته وإخباره

لهم أن الذي ابتدع السماوات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال - هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته<sup>(٢٩١)</sup>.

وقوله تعالى: وَإِذَا قُضِيَ أَمْرُ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْلِهِ إِنَّهُ يَكُونُ. معناه وإذا أراد سبحانه إحداث أمر من الأمور حدث فوراً. وَكُنْ فَيَكُونُ. فعلا الكون بمعنى الحدث، ويرى كثير من أهل السنة أن الجملة واردة على وجه التمثيل لحدث ما تتعلق به إرادته سبحانه - بلا مهلة وبلا توقف. وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون، ففى الكلام استعارة تمثيلية.

وقال الزمخشري: كُنْ فَيَكُونُ. من كان التامة أى أحدث فيحدث. وهذا مجاز من الكلام تمثيل ولا قول لم. وإنما المعنى: أن ما قضاء من الأمور وأراد كونه فإنما يتكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف كما أن المأمور المطيع الذى يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء، أكد بهذا استبعاد الولادة لأن من كان بهذه الصفة من القدرة كانت حاله مباينة لأحوال الأجسام فى توأدها<sup>(٢٩٢)</sup>.

ويرى آخرون أن الأمر يكن محمول على حقيقته، وأنه تعالى أجرى سنته فى تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة كن أرى.

وبذلك نرى أن الآيتين الكريميتين قد حكنا بعض الشبهات الباطلة التى أوردتها الصالون حول وحدانية الله، وردنا عليها بما يدحضها ويثبت كذبها.

★ ★ ★

### تعنت وعناد

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

المصدران:

لولا : كلمة لحض الماعل على الفعل وطلبه منه.

الآية : الحجة والبرهان.

التشابه : التماثل.

اليقين : هو العلم بالدليل والبرهان.

تمهيد :

اختلف المفسرون فى المراد من الذين لا يعلمون:

١ - فقال ابن عباس هم اليهود، ويؤيد هذا رأى أن السياق من أول السورة فى الحديث عن اليهود. وأن القرآن قد حكى عنهم سؤالهم موسى عدداً من الآيات على سبيل التعنت والمكابرة.

قال تعالى: يَسْأَلُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تُخَلَّفَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَأَى اللَّهَ جَهَنَّةَ - (النساء : ١٥٣)

وقال تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهَنَّةَ. (البقرة : ٥٥)

٢ - وقال مجاهد هم النصارى، وهو اختيار ابن جرير الطبري لأن السياق فيهم، قال ابن كثير: وفي هذا الكلام نظر، أي فهو لا يسلم أمام المناقشة، فليس النصارى وحدهم الذين قالوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. (البقرة : ١١٦) وإنما اليهود أيضا قالوا ذلك، قال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ. (التوبة : ٣٠).

٣ - وأكثر أهل التفسير على أن المراد من : الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ. هم مشركو العرب، ويؤيد هذا القول أن القرآن المكي قد حكى عنهم الكثير من التفتت والمتو ومؤالهم ما لا حاجة لهم به وإنما هو الكفر والمماندة. قال تعالى: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ. (الأنعام : ١٢٤)

وقال تعالى: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ مِنَ الْأَرْضِ يَتَّبِعَا. (الإسراء : ٩٠ - ٩٣)

وقال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عَنَّا كِبِيرًا. (الفرقان : ٢١)

وقد عبر القرآن عنهم بالذين لا يعلمون استهجانا لذكرهم لقبح ما صدر عنهم، ولأن ما يعكس عنهم لا يصدر إلا عن الجهلاء.

ولا يبعد أن يكون المراد من الذين لا يعلمون جميع الطوائف المشتركة من اليهود والنصارى والعرب. ويكون الأميين من المشركين هم المقصودون قصداً أولياً، فكثيراً ما تحدثوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يكلمهم الله أو ناتهم حارقة من الخوارق المادية.

كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم: أي مثل هذه الأسئلة التي يرد بها التفتت قد قالها من قبلهم من الأمم السابقة، أو من اليهود والنصارى.

إذ قالوا: أَرَأَى اللَّهَ جَهَنَّةَ - (النساء : ١٥٣)

وقالوا: لَنْ نَعْبِرَ عَلَى طَعَامِ وَاسِدٍ. (البقرة : ٦١)

وقالوا: هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُزِلَّ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ. (المائدة : ١١٢)

وقالوا: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة. (الأعراف: ١٢٨)

تشابهت قلوبهم. أى تشابهت قلوب السابقين مع قلوب اللاحقين فى الكفر والإعراض عن الحق والعناد والمكابرة.

والمعنى: أن تشابه أقوالهم نابع من تشابه قلوبهم. كما قال تعالى: كذلك ما أتى الدين من قبلم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاعون.

قد بينا الآيات لقوم يوفون. أى انما لم نتركك بلا أية بل بينا للناس الآيات على يديك بما لا يدع محالا للريب.

قال ابن كثير:

أى قد وضعنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن ايقن وصدق واتبع الرسل وهم ما جاءوا به من الله تبارك وتعالى. وأما من ختم الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة فأولئك الذين قال الله فيهم إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون \* ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم . (يونس : ٩٦)

★ ★ ★

### البشير النذير

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْتَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٢١﴾ وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ وَلَئِنْ آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٢﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

المضردات:

الحق

: هو الشيء الثابت المتحقق الذى لا شك فيه.

بشيرا

: البشير المبشر وهو المخبر بالأمر السار للمعبر به الذى لم يسبق له علم به.

نذيرا

: التنذير : المنذر وهو المخبر بالأمر المخيف ليعذر منه.

الجحيم

المتأجج من النار، وأصعابها الملامون لها. والسؤال كناية عن المؤاخاة واللوم.

## التفسير:

لا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد، فإن وظيفتك أن تبشر ولست بعد ذلك مؤاخذاً ببقاء الكافرين على كفرهم ولست مسئولاً عن عدم إعتدائهم. وهذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وبيان لمهمته كي يتوجه إليها بكلية ولا يلتفت إلى معارضة أهل الكتاب والمشركين، بعدما سجل تعنتهم.

وعن ابن عباس قال: بشيراً بالجنة ونذيراً من النار.

وروى أحمد عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة؟ فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . (الأحزاب : ٤٥) وحريراً للأمة، وأنت عبيد ورسولي، سميتك المتوكل، لا فخذ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة المعوجاء. بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً (٢٩٢). انفرد بإخراجه البخاري ورواه ابن مردويه.

١٢٠ - وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آتِيتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ لَئٍ وَلَا نَصِيرٍ . تحذر هذه الآية الأمة المحمدية من اتباع اليهود والنصارى والتفریط في أمور دينهم.

ولقد حرص السلف الصالح على التمسك بدينهم فقالوا عز الدنيا وشرف الآخرة.

ثم ذل المسلمون لأعدائهم من اليهود والنصارى فزادوا في التشبه بهم قليلا قليلا.

ثم كشفوا عن وجوههم فاضربوا على المسلمين قوانين أوروبا الوثنية المجرمة الملعونة، ثم استباحوا أكثر المحرمات يصرحون بإباحتها من غير حياء ولا غيرة، ثم صاروا يتبنون الشرائع الإسلامية والأخلاق الكريمة التي هدانا الله إليها ورسوله - بالتقاليد والرجعية - لينفروا الناس منها.

بل إن بعض الماجنات ينشرن في الصحف الدعوة السافرة إلى السفور، هلن ثم يدفع المسلمون هذه المنكرات عن دينهم وبلادهم، ليسلطن الله عليهم عدوهم وليستبدلن بهم قومًا غيرهم. قال تعالى: وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ . (٢٩١)

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يبين لرسوله غاية أعدائه من اقتراح الآيات، ويحذره منهم فقال ما معناه: إن اليهود والنصارى يقترحون الآيات تمجيذاً لا طلباً للهداية، فلو اتبعتهم يا محمد بكل ما يسألون فلن يرضوا عنك ولن تقال رضاهم حتى تتبع دينهم الزائف المحرف.

قال ابن جرير الطبري: يعنى جمل شأؤه بقوله: وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.

ولم يست اليهود - يا محمد - ولا النصراني برأضية عنك أبدا، فعد طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بميثك الله به من الحق، وقوته تعالى: **قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهَدَىٰ**. يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل: **وَلَيْسَ اتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**. فيه تهديد ووعد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة، عياذا بالله من ذلك، فإن الخطاب مع الرسول، والأمر لأمة (٢٩٥).

ويعد أن ذكر القرآن في الآيات السابقة أحوال الكافرين من أهل الكتاب أخذ في بيان حال المؤمنين منهم فقال:

١٢١ - **الَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابُ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**. المراد بالذين آوتوا الكتاب، مؤمنو أهل الكتاب، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل.

قال قتادة: هم اليهود والنصارى، وهو قول عبد الرحمن بن أسلم، واختاره ابن جرير الطبري.

وحمل بعض المفسرين الآية على أصحاب النبی صلى الله عليه وسلم والكتاب على القرآن. والرأى الأول أولى. فإن عرف القرآن جرى على أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، ولم يذكر المسلمون فيه إلا بعنوان المسلمين والمؤمنين، كما أن السياق والحق في بني إسرائيل.

#### ومعنى الآية:

**الَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْكِتَابُ يَتْلُونَهُ** أى من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد. **أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ** - أى ببعث محمد صلى الله عليه وسلم ونعمته وصفته والأمر باتباعه ونصره وموازنته. **وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**.

والكفر بالكتاب يتحقق بتعريفه وإنكار بعض ما جاء فيه، أى ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون في الدنيا حيث لا يعيشون فيها عيش المؤمنين، وهم الخاسرون في الآخرة، حيث خسروا نعيم الآخرة وحق عليهم العذاب الذى أعد الله للكافرين.

أو معنى: **وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ** : ومن يكفر بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم ويكتم صفته ونعمته فقد خسر الهدى في الدنيا والسعادة في الآخرة.

#### ملحقات:

قال عبد الله بن مسعود: والذى نفسى بيده إن حق تلاوته: أن يعلى حلاله ويعلم حرامه ويقراه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله.

وعن ابن عباس: **يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ**. قال: يتبعونه حق اتباعه ثم قرأ: **وَالْقُرْآنَ إِذَا تَلَّاهَا**. يقول اتبعها، وروى عن عكرمة وعطاء ومجاهد نحو ذلك (٢٩٦).

٢ - في الآية إيماء إلى أن الذين يتلون الكتاب دون أن يتدبروا معانيه لا حظ لهم من الإيمان لأنهم لا يفتقرون هداية الله فيه ولا تصل العظة إلى أفتدتهم بتلاوته.

قال تعالى: **لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ**. (ص: ٢٩). ولكن وأسفا إن كل هذه الآيات والعبر لم تحل بين هذه الأمة وتقليدها من قبلها وحذوها حذوهم شبرا بشبر وذراعاً بذراع (والقرآن حجة لك أو عليك).

★ ★ ★

## أنعم الله

﴿يَبْقَى اسْمُهُ يَلْ أَدْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

المضرات:

إسرائيل

: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، عليهم السلام.

اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم : تذكروا ما أنعمت به عليكم من الإنجاء من بطش الفراعنة، وإنزال التوراة وغير ذلك. والمقصود من أمرهم بتذكروها أن يشكروها بالإيمان بما يجب الإيمان به.

وأني فضلتكم على العالمين : على عالمي زمانهم.

: المراد باليوم يوم القيامة، وباتقائه: التحفظ من عقابه.

واتقوا يوما

لا تجزى نفس عن نفس شيئا : لا تحمل عنها شيئا من جزاء عملها.

ولا يقبل منها عدل : لا يقبل منها هداء.

تمهيد:

يذكر الله بني إسرائيل بنعمه التي أنعمها عليهم، وقد سبق التذكير بهذه النعم في الآيتين ٤٧، ٤٨ من هذه السورة، ولكنه كرر تذكيرهم بها هنا تأكيداً لتوجب شكرها بالإيمان، وليرتب على الكفر بها الوعيد الشديد يوم القيامة.

التفسير:

يا أبناء النبي إسرائيل تذكروا ما أنعمنا به من النعم على آبائكم. ومن أجل ما أنعم الله به عليهم التوراة، وفيها وصف النبي صلى الله عليه وسلم ونعته وأمره وأمته. قال ابن كثير: «يعجزهم من كتمان هذا وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عمهم من العرب



على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يعملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيدة عن موافقته.

وقد فضل الله اليهود على عالمي زمانهم بما آتاهم الله من التوراة دونهم وهذا التفضيل مرتبط بأسبابه وهو اتباع التوراة والعمل بها وتنفيذ أوامرها واجتناب نواهيها، فإذا أهملوا أوامر الله، وكنتموا بمعضها، وحرفوا وبدّلوا بعض ما هي التوراة، فقد فقدوا أسباب التفضيل واستحقوا اللعنة والطرده والغضب.

كما ذكر ذلك القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** . (الجمعة : ٥)

ومثل قوله سبحانه: **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ \* كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** . (المائدة : ٧٨ ، ٧٩).

١٢٣ - **وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** . تقول: جزى عنى هذا الأمر يحزى، كما تقول قضى يقضى زنة ومعنى. أى اتقوا يا معشر بنى إسرائيل المبدلين كتابي، المحرفين له عن وجهه، المكذبين برسولي محمد صلى الله عليه وسلم، عذاب يوم لا تقضى فيه نفس عن نفس شيئاً من الحقوق التى لزمته، فلا تؤخذ نفس بذنب أخرى، ولا تدفع عنها شيئاً كما ورد فى الصحيحين: **يا فاطمة بنت محمد سليني من مالى ما شئت، لا أغنى عنك من الله شيئاً**.

**وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ** : أى فداء مهما عظم لو وجدته.

**وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ** : ولا يشفع فيها وجب عليها من حق شافع (٢٩٧).

**وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ** : أى لا يأتيهم ناصر ينصرهم فيمنع عذاب الله عنهم إذا نزل بهم.

والتعرض لنفس الفداء والشفاعة والنصرة فى هذا اليوم، لأنها هى الأمور التى اعتادها بنو آدم فى تخليصهم إذا وقعوا فى شدة.

وقد كان اليهود يعتقدون بالكفريات تؤخذ فدية عما فرطوا فيه، ويشفاعة أنبيائهم لهم، فأخبرهم الله أنه لا يقوم مقام الاهتداء والإيمان الحق شيء آخر.